من تاريخ مصر

اللنبى فى مصر

١٩١٩ - ١٩٢٥

بقلم

المارشال ويفل

ترجمة

على ابراهيم الأقطش   مصطفى كامل فودة



الناشر - مكتبة مدبولى - القاهرة



مصر من مارس ١٩١٩ الى نوفمبر ١٩٢٥

بقلم المارشال ويفل

ترجمة علي ابراهيم الأقطشي و مصطفى كامل فوده

مقـــــدمة

لا نريد بهذه المقدمة أن نعرض لحوادث الكتاب ولحكم ويقل عليها بنقد تفصيلى ، فذلك ما لا سبيل إليه الآن ، كما هو أمر متروك لفطنة القارئين ولكتاب نقده فى المستقبل القريب عن أخطاء السياسة المصرية الحديثة ؛ إنما أردنا أن نشير فقط إلى بعض النقط البارزة التى يمكن ملاحظتها بسرعة .

لقد اخترنا هذا الكتاب لأسباب عدة : لأهمية الموضوع الخاصة بالنسبة لنا كمصريين ، إذ هو يتناول حقبة من أهم الحقب التى مرت بنا فى تاريخنا الحديث ولأهمية أللنبى نفسه باعتباره رجلا من كبار الإنجليز ، ولصلته الوثيقة بتلك الحقبة من تاريخنا ، ثم لأهمية ويقل كذلك بوصفه قائداً بريطانياً عظيما اتصل بمصر وعرف المصريين وكانت له بأللنبى أيضا صلة قوية ، ثم للصراحة العارية والنفاذ العجيب والإلمام الكافى والفهم الدقيق للمواقف والحوادث والأغراض والأشخاص التى أملت على السياسة المصرية الإنجليزية فى تلك الحقبة المزدحمة بالمتناقضات فى تاريخ مصر وتاريخ أللنبى وانجلترا فى ذلك الوقت ، وللأسلوب الذى كتب به الكتاب وهو أسلوب مركز حاسم لاذع يشبه الطلقات النارية أو يشبه مشية الجندى القوى الصريح الصارم الذى يتعجل هدفه فى رصانة وثقة ، ويقصد إلى الحقيقة ويظهرها فى أقل مساحة ممكنة وأقصر وقت مستطاع ، مما يجعل ويقل بحق من أحسن كتاب التراجم المحدثين .

ولسوف يرى القارىء كثيرا من الطعون توجه إلى شخصيات ألف أن يذكر اسمها أمامه مقترنا بكثير من فروض التوفير والتقديس ، حتى لقد يبلغ به الألم أحيانا حد الاشمئزاز ، وخاصة عندما يوجه الطعن إلى أعز الأشخاص علينا وأقدس المعانى بالنسبة لنا ، ولكن ذلك نفسه بعض غرضنا من هذه الترجمة ، فلا يجب أن يعمينا الحب لشخصية من الشخصيات أو الاعزاز لحرمة من الحرمات عن الاستماع فى أناة إلى ما يوجه لها من نقد أو ما يؤخذ عليها من عيوب ، فان ذلك أدعى إلى ثبات هذا الحب ومعقوليته وأحرى أن يجد له من الأسباب الحقة ما يدعو اليه ، وحتى لا يكون

حبنا أو إعزاز نابج رد هوى سريع أو نزعة غالبة ، أو مجرد تعصب أحمق وحماس جهول .

ثم إن فى هذا الكتاب لعرضا عميقا صادقا لطريقة بريطانيا التقليدية — وهى مالا بدلنا من إدراكه إذا كنا نريد أن نصل إلى شيء من النجاح معها ، إذ لا بد من الفهم الصحيح لعقلية اللاعب الذى تنازله أو تشاركه ولأسلوبه ، إذا كنت تبغى الوصول بعملك هذا إلى نتيجة ذات قيمة فى الحقيقة ، إذ لا يكفى أن تنازله أو تعاونه هكذا اعتباطا أو حيثما يتفق لك ، تاركا مجرى الحوادث لسلطان الفوضى من ناحيتك ولسلطان الاستغلال من ناحيته ، أوجاهلا بحقيقة المصير الذي تنساق إليه لجهلك بحقيقة التصرفات والأغراض من ناحيتك وناحيته .

نعم ، لقد أصبحت مشاكل السياسة المصرية « من صنع المصريين » . !

ولعلنا نفهم — بعد القراءة — مواقف قوتنا ومواقف ضعفنا ، وأن نعرف أسباب القوة والضعف فهى أسبابهما دائما . وأن نعلم ان السياسة الدولية لا يدعمها غير القوة ، سواء الحربية أو الاقتصادية أو النفسية .

إننا مقدمون على فترة كالفترة المدروسة فى هذا الكتاب ؛ لنا نفس الآلام ، ولنا عين الأمانى . فعسى أن ننظر لأنفسنا نظرة فاحصة نزيهة ، لا نحابيها ولا ولا نتملقها ، وعسى أن نتعظ بأخطائنا وندرك حقيقة موقفنا ؛ وعسى أن نسير على هدى من أغراضنا وهدى من وسائلنا ، وعسى أن نعرف ما حققناه — إن كنا حققنا شيئا — من آمالنا ، ونعرف ما بقى علينا أن نحققه منها .

ونحن من دعاة الاتفاق بين مصر وبريطانيا . ولكن ليست العبرة بكلام يكتب أو بأنظمة تقام ، بل العبرة بالتنفيذ والعبرة بخلوص النية وعقد العزيمة على المطابقة بين ما كتب وأقيم وبين حقيقة جوهره ومعناه . ولقد أدت مصر واجبها فى هذه الحرب ، وقدمت لبريطانيا أقصى ما يمكن من صنوف المساعدات والعون ، وكان يحدوها فى ذلك الاخلاص والفهم . فعسى إذن أن تقدر بريطانيا الديمقراطية قيمة الصداقة الحقة ، وقيمة الآلام الصادقة الحقة ، وقيمة الآلام الصادقة فى نفسية الشعوب ؟

المترجمان

مقدمة المؤلف

انتويت الترجمة لأللنبي من سبع سنوات تقريباً ، أى بعد وفاته بقليل . وكنت إذ ذاك قائد فيلق فى ألدرهورست ، ولكن كنت يوماً مشغولا ، إلا أن عملى لم يكن ليقتل أملى فى تحقيق ذلك الغرض بعد وقت معقول . كنت فى حاجة إلى شهور عدة أجمع فيها مواد كتابى ، لأن أللنبى لم يترك أى تقرير عن حياته ولم يخلف أية أوراق خاصة به . ولم أكد أبدأ الكتابة حتى أرسلت إلى قيادة بفلسطين وما أسرع أن أصبح على معالجة أمر ثورة هناك . ثم عدت إلى إنجلترا فى سنة ١٩٣٨ لأتسلم « القيادة الجنوبية » — وهى أكثر قيادات انجلترا عملا — فلم يعد فى مكنتى مرة أخرى سوى أن أوفر قليل من الوقت للكتابة . حتى إذا أمرت بالسفر إلى الشرق الأوسط — قبل قيام الحرب الحالية بشهرين — كنت قد فرغت تقريباً من الترجمة لأللنبى فى حياته الحربية ، ثم أخذت بعد ذلك فى كتابة الجزء الذى يعادله أهمية — إن لم يزد عليه — وهو عمله كمعتمد بريطانى فى مصر . ولما رأيت الأمل قليلا فى إتمام هذا الجانب — طالما ستستمر الحرب — اتخذت العدة لنشر ما انتهيت منه فعلا ، تاركا قصة المسألة المصرية إلى ما بعد الحرب . وكانت النتيجة أن نشر كتابى « أللنبى . دراسة فى العظمة » فى سنة ١٩٤٠ . قصصت فيه حياة أللنبى حتى نهاية حربه ضد الترك فى سنة ١٩١٨ .

ولقد بدا لى من المؤسف — فى العامين الأولين للحرب عندما كانت قيادتى العليا بمصر . ألا أستفيد من وجودى هناك وألا أقوم على الأقل بجمع المواد اللازمة من الذين عرفوا أللنبى وعملوا معه — بريطانيين ومصريين — ثم تم لى — بالتدريج جميع المواد لهذا الكتاب . ولقد كنت أكتبه فى ساعات — أو أنصاف ساعات الفراغ التى أتيحت لى ، وكثيراً ما كانت تفصل بينها أيام أو أسابيع وأحياناً شهور كل ذلك فى خلال عامين من المجهود الحربى الشاق . بل لقد كنت أكتب بعضه أثناء رحلاتى

بالطائرة ، ولما أن نقلت إلى الهند نحيت ما كتبته جانباً — إلا أنى شعرت بعد ذلك بأن نشر شجاعة ألنبي وزعامته على الناس ربما تكون وحياً لهم فى هذه الأيام القاسية وعلى هذا قمت أخيراً بمجهود خاص لمراجعة الكتاب وإتمامه .

لم يسبق لأحد نشر قصة ألنبي فى مصر بالتفصيل ولا بما يليق به ، وكتاب لورودلويد « مصر منذ كرومر » كتب بالتأكيد من غير معرفة تامة للحقائق . كان ألنبي لا يعنى إلا بالنتائج التى يصل إليها فقط ولم يسلك أبداً طريق تبريرها أو توضيحها . وأنى لآمل أن يستطيع كتابي هذا — ويمكن الاعتماد على ما فيه من حقائق — تقديم حكم أكثر صواباً على حياته وأخلاقه وأعتقد بأنه جدير بأن ينضوى تحت عنوان كتابي السابق « دراسة فى العظمة » كذلك أعتقد أن المعاونة الصادقة التى قدمتها لنا مصر فى هذه الحرب — وخاصة حين بدأ نصرنا مشكوكاً فيه عند المصريين — إنما ترجع إلى حد ما — لما تركه فيها ألنبي من أثر للعزيمة البريطانية والمعاملة الطيبة .

ولما كان سيظهر هذا الكتاب بعد الجزء الأول بمدة طويلة ، رأيت أن أعيد هنا نشر فصلين منه هما « ألنبي الرجل » و « ألنبي الجنرال » وهما يلخصان خلق ألنبي وصفاته الحربية ، وسيساعدان القارىء فى تقدير تاريخ حيـــاة ألنبي وأخلاقه كوحدة كاملة .

وإنى لمدين بالشكر لرجلين عاونانى بسخاء بما قدماه من معلومات هما : سير والفورد سلي وجوالد ديلانى . وقد عاشا أيام الحوادث التى وصفتها وكانت لهما معرفة تامة بمن تكلمت عنهم من الشخصيات فوق مالهما من فهم عميق لروح التاريخ . فأعطانى سلي باعتباره موظفاً بدار المعتمد البريطانى بالقاهره ثم بوزارة الخارجية البريطانية — وجهة النظر الخفية ، أى وجهة النظر الرسمية . وكان ديلانى بصفته مندوباً لرويتر - على اتصال وثيق بالدوائر الرسمية وغير الرسمية ، مصرية وبريطانية وليس يعادل معلوماته وحكمه على مجرى الحوادث بمصر شىء . وإنه لأكثر منى جدارة لوضع هـذا الكتاب ، لكنه — بدلا من ذلك وهبنى بسخاء معلوماته

ومساعداته . لكنى أرجو أن يكتب هو سريعا كتابه عن مصر . وبين الآخرين الذين قدموا لى مساعدتهم القيمة ونصائحهم من أصبح فيما بعد السير موريس آموس والسير ألكسندر كين بويد ، و ر . ا . فرنس ، وثلاثتهم كانوا من موظفى دار المعتمد أثناء وجود أللنبي ، وبينهم كذلك الكولونيل ر . ه أندروبن أخت أللنبي كما أتقدم بالشكر لوزارة الخارجية البريطانية لسماحها لى بالاطلاع على الوثائق الرسمية الخاصة بتلك الفترة . وفى النهاية أشكر ابن عمى رايموند وايشل باكستون ، لكل ما قام به فيما يختص بالاتفاق لى مع الناشرين فى الوطن مع غيابى عنه .

وإنى لأشعر بالأسف العميق أن لادى أللنبي — وهى التى طلبت منى كتابة هذه المذكرة عن زوجها — لم تعش لترى هذا بعد أن تم . لقد تركت فى نفوس الذين عرفوها ذكرى سيدة كريمة نبيلة ، كانت خير رفيق لزوجها العظيم ؟

نيو دلهى إبريل سنة ١٩٤٣ **المؤلف**

اللنبي فى مصر

لم يحفل اللنبي بما سيكتبه المترجمون له ، أو بأن تكتب ترجمة له على الإطلاق ، فلم يعن بتفسير نجاحه ولا بتبرير أى عمل قام به ، بل كان لا يحمل ضغينة لمنتقديه أو منقصيه ، كذلك لم يترك أى تقرير عن حياته أو أى مادة تؤلف مثل هذا التقرير إذ كان برما بالذين يسترجعون الحوادث الماضية قائلا إن المستقبل وحده هو المهم .

ومع كل فمن المستحسن أن نحاول سرد قصته ورسم صورته . وليست الفائدة فقط فى الترجمة لجندى ناجح فى أشد الحروب امتحانا للنفوس ، وإدارى حكيم فى بلاد مضطربة وفى أوقات حرجة ، بل إن خلق اللنبي كان من الندورة فى صدقه وقوته بحيث يصلح أنموذجا ، ومع ذلك فقد كان ذا فطرة — رغم فظاظتها وعنفها أحيانا — تستطيع أن تفلت من الكراهية التى يستشعرها معظم الناس لمن ينصب أنموذجا لهم .

لقد توطدت شهرة أللنبي كجندى بحملتين عظيمتين فى فلسطين وسوريا . كانت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٨ فى غالبها شاقة قاسية ، مفتتة للقلوب وقليل من مناورات تلك السنوات ماسوف يذكره الناس ويتدارسونه كأمثلة للفن الاستراتيجى ، فمعارك المارن وتاننبرج وحملات الجبهة الروسية سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٥ واكتساح الصرب ورومانيا والعمليات التى بدأت عند غزة — بيرشيبه وانتهت بسقوط بيت المقدس والقضاء التام على الجيوش التركية فى فلسطين وسوريا ، كل هذا سيكون المادة الأساسية لدراسة تحليلية . وفى اثنتين منها كانت اليد العليا لأللنبي ، ولو أنه فى الحق كان يمتاز فى انتصاراته

على عدوه بالعدد والعدة إلا أن طريقة إنجازها تدل على قوة فى التصور وصلابة فى التنفيذ يجب أن تعليا قدره بين عظام القواد الحربيين ، فبداية معركة أراس Aras فى ابريل سنة ١٩١٧ تبين أنه حتى فى ظروف حرب الخنادق السيئة كان يضع خططه بطريقة مبتكرة ؛ ولو قد بقى بفرنسا يومئذ وأتيحت له الفرصة الكافية فلربما استطاع أن يأتى بمايحسن الموقف الحربى ويعجل بنهاية ذلك الصراع الطويل . ومما يجدر ذكره هنا أن اثنين من مشاهير ضباط فرقة الدبابات قررا أنه كان أكثرضباط القيادةالعليا فىالجبهة الغربية فهما إذ كانت له حقا صفات الشجاعة والولاء واستقامة الفكر ووضوح الغرض والدراية بمهمته وحسن التصرف فى تطبيق معلوماته ، مما يجعله جنديا عظيما فى أى عصر وفى أية ظروف .

ولقد أظهر نفس هذه الصفات وزاد عليها جلداً وتسامحاً أصليين فى نفسه — ولو أن مظهره وتصرفه لم يوحيا بذلك دائما — أظهرها أولا فى إدارة أراضى العدو المحتلة التى اكتسحتها جنوده فى فلسطين وسوريا ثم فى أرض مصر العتيقة الخادعة أثناء فترة دقيقة وخطيرة . أما نجاحه كدبلوماسى وإدارى فقد كان محلا للمناقشة أكثر مما كانت مقدرته كجندى ، ولقد انتقدت بمرارة معالجته للمسألة المصرية فى بعض الدوائر فهل رد عن نفسه قط أو دافع ؟ كلا . لم يكن ذلك سبيله ومع ذلك فسيأتى اليوم الذى نتمكن فيه من تقديم ما يحسّن فهمنا وحكمنا على ما قام به فى مصر ، بل ها هوذا مجرى الحوادث خير برهان على بعد نظره وحسن فهمه .

ولسوف تبقى التقارير والمستندات الرسمية لانتصاراته كجندى ولنجاحه أو فشله كإدارى فى متناول استراتيجي المستقبل ومؤرخيه ليحللوها ويناقشوها

ولكن التاريخ وخاصة الحربى منه جاف داع للخطأ مجرد من الفهم الواضح للشخصيات ولدوافع القائمين بالدور الأول فيه، فهو شبيه بالطعام المحفوظ : تنقصه الڤيتامينات الضرورية للصحة . إن غرض هذه الترجمة هو أن تسجل صورة لألنبي كرجل وما تزال الذاكرة حية واعية وما يزال كثير ممن عرفوه على قيد الحياة أكثر من أن تصف بالتفصيل أعماله فى الحرب والسلم . ولربما كان اللنبي الآن قريبا منا لدرجة ألا نستطيع تقديره نهائيا كقائد وإدارى ولكن سرعان ما سيغدو بعيداً منا بحيث لا يُستطاع تصويره كرجل .

إنحدر ألنبي من الريف من أرومة إنجليزية عريقة : وكان يمثل تلك الفضائل التى يجب أن يعتبرها الانجليزى أخص صفات جنسه : التسامح والشفقة وحب السلام والنظام وحسن المعاملة . وليس لعائلته تقاليد من الناحية العسكرية ، وكان المجد آخر ما يطرأ بباله . لم ينظر إلى العسكرية نظرة المحترف الباحث عن شهرة خاوية بل نظرة المواطن الصالح يحمل السلاح دفاعا عن السلم والتجارة ، لذلك كان يرغب دائماً فى العودة من ضرورة القتال البغيض إلى قريته أو مدينته ، إلى بيته وعمله . ولما كان ضابطا حدثا أسرّ لصديق له بأن أعظم ما يشوقه فى الحياة أن يمتلك حديقة وأن يغرس الأزهار ولكنه وقد اختار حياة الجندية بقى محتفظا بإحساسه العميق بالواجب وبولائه — وكانا رائديه طيلة حياته — حتى لقد جعلا منه أحيانا رئيسا شديدا على من يعملون تحت إشرافه . لم تكن مطامعه الشخصية كبيرة ولم يسع مطلقا إلى الترقية ولكن خلقه وكفاءته قد جعلا من المؤكد أن تسعى إليه الترقية . لم يزعم ألنبي أبداً الزهد فى التمتع باستعمال السلطة ولا فيما تهبه من المزايا والمكانة . كانت تغلب السعة والرجاحة فى تفكيره على العمق فيه

ولم يكن ذا عقل بعيد الخيال مبدع كمارلبرو وكانت عبقريته الحربية أهدأ وأكثر صلابة كعبقرية ولنجتون، وذلك لب الخلق وحسن التصرف . ولقد وهب ذاكرة عجيبة الوعي عرف كيف يملأها بحكمة مضيفا معرفته القويمة بمهنته وكثيراً من معلوماته الدراسية إلى ما اكتسبه فى صباه من المعلومات الشعبية فى قريته، وفى هذه النواحى الثلاث احتفظ أللنبي بثروته الثقافية جديدة نضرة . كان مدى معلوماته عظيما فليس من الحكمة أن يحكم على شيء فى حضرته دون التأكد من الحقائق، إذ يبدو أنه قد قرأ وفهم وتذكر أكثر ممن أصدر الحكم فى الموضوع نفسه، وهو لا يتظاهر بمعلوماته ولا يتكلم لمجرد التأثير ولكنه ما كان ليترك حكما خاطئا أو ناقصا يصدر أمامه من غير أن يصححه . كان مجداً كثير القراءة يجد لذة فى التنقل خارج وطنه، فلم تسنح فرصة لزيارة بلاد جديدة ولرؤية مناظر لم يرها من قبل إلا وانتهزها . لم يكن أحب اليه من الهدوء وكل ما يوحى بالسلام كالحدائق والطيور والمبانى العتيقة، أما الصيد فكان هوايته المفضلة .

كل هذا لايبدو متفقاً تماماً مع اسم «الثور» الذى أطلق عليه واشتهر به فى الجيش . ومع ذلك فقد كان هذا الإسم يصدق عليه —إلى حد ما— عند الذين رأوه وعرفوه للمرة الأولى . كما أنه يتفق وبعض أطواره النفسية . كان حجم جسمه وسلوكه وقوته الجثمانية الظاهرة تؤثر بذاتها، وطلعته الصريحة الواضحة بفكه القوى وعينيه الثابتتين تؤكد قوته وشجاعته . يناسب صوته وجهه . فهو قوى واضح واثق بنفسه إلى حد العجرفة تقريباً، والإحساس بقوة تكوينه ووجهه وصوته كلها عظيمة التأثير فيمن يتصلون به، أما شخصيته المسيطرة فكانت الوحى والعماد لمن عرفوه وواجهوه بهدوء وبغير وجل،

ولكنه من غير شك كان مخيفاً مربكا لمن قابلوه لأول مرة ولمن اضطربوا فى حضرته وخاصة فى عمله الرسمى . كان يسلك مسلك الغلظة والخشونة فأسئلته صريحة حادة يتطلب عنها إجابة مباشرة سريعة . وأى محاولة للتملص أو التعمية أو حتى التردد قمينة أن تفجر غضبه الذى يهز أثبت الناس

ولسنا فى حاجة إلى خبرة طويلة لكى نتأكد من أن هذا الاسم الذى أطلق عليه إنما يصدق فقط على مظهره ، وأن الرجل عظيم العقل والخلق بقدر ما كان عظيم الجسم ، وأن نظرته إلى الناس — على الرغم من إنفجارات غضبه — إنما هى نظرة العطف والتسامح . فالصفة الخلقية البارزة فى اللنبى هى عظمة فى العقل تنافس عظمة فى الجسم . كان عاجزاً عن أدنى صغار أو ضعة نفسية فى معاملته للناس أو فى المسائل الخلقية ومهما بلغ غضبه من قوة فما كان يحب الأذى أو ينطوى على الضغينة ، وعلى الرغم من ثقته الشديدة بنفسه لم يكن عنيداً بل كان على استعداد دائم أن يسمع آراء المختصين ويتقبل نصحهم لو رآه سديداً . وإذا بت فى أمر لم يطلب من أحد تحمل المسئولية معه فان سارت الأمور سيراً حسناً لم يبخل بالاعتراف بخدمات مرءوسيه وإن ساءت الأمور اقتصد فى إبداء اللوم فما نزل أبداً إلى الدرك الذى يتهرب فيه من المسئولية ولا إلى درجة الدفاع عن نفسه

كان دائماً مهيباً مهذباً مع النساء وكلهن يحببنه ، رحيما لطيفاً مع الأطفال وكلهم يعزه ، وكان متحفظاً مع الرجال حتى مع أولئك الذين يعرفونه خير المعرفة . ولقد ظل — إلا فى أحوال نادرة — متباعداً مترفعاً لا يسأل الناس سرهم ولا يبوح لهم بسره . كان عظيم الثقة بنفسه حتى يكاد ألا يعترف بوجود الريب فى نفوس من هم دونه ، وطريقه فى الحياة بسيط مستقيم غير ملتو فلا

الرهبة ولا الرغبة بجاعلتيه يحيد عنه . وكان الهدوء والسلام غايته التي يهدف إليها ، سلام الريف الإنجليزى الذى خرج منه .

تلك هى الخطوط الأساسية التى ستحاول الصفحات التالية أن تكون لأللنبي صورة منها ، صورة جندى عظيم وشريف شجاع يمثل مبدأ أسرته : « الإخلاص والجد » : العقيدة ، التى عاش بها ومات عليها .

أللنبي الجنرال

خدم أللنبي بلاده ثمانى سنوات شاقة أخريات ، وظل فيلد مارشال فى الخدمة حتى نهاية عمره ولكن انتهى فى الواقع تاريخ حياته كقائد للجنود ساعة عقد الهدنة مع تركيا . ويبدو أن هنا المكان اللائق لمحاولة تقديره كقائد ولتحديد مكانه بين العظماء من رجال الجندية البريطانيين . لم يطلب هو لنفسه مثل ذلك المكان بينهم ، لا لشعوره بالتواضع بل لأنه لا يعتقد بجدوى الوقت الذى يضيع فى مناقشة مزاياه أو نقائصه . لقد أدى ما طلب منه على خير ما يستطيع وتلك هى النتائج — حسنة وسيئة — أمام العالم فليرها ويحكم.

لقد كان أللنبي رجلا ناجحاً . وسواء أعادت انتصاراته إلى الحظ أو إلى عمل رجاله أو إلى مزايا القتال فى جنوده أو إلى ضعف عدوه أو إلى مهارته الشخصية فليختر كل ما يعجبه . أما هو فلن يفعل شيئاً لا بلسانه ولا بقلمه ليغير من ذلك الحكم شيئاً اللهم إلا أن يكافىء بسخاء من عاونوه . إن العمل التالى هو كل مايعنية هو ، لا مناقشة الماضى . ولو كان أللنبي من لاعبي البريدج لما سمح بأى بحث فى سبب الهزيمة Post-mortems وإنما يكتفى بتسجيل المكسب أو الخسارة مع كلمة مديح أو تعزية لشريكه جاعلا همه فى اللعبة

التالية . ومن رأيه أنه إذا فرغ المرء من عمله فلينفق إذن سنيه الأخيرة فى دراسة الطيور الحية والوحوش والزهور وفى زيارة نواح جديدة من العالم فذلك بالتأكيد أجدى من مناقشة حوادث قديمة ميتة تستعصى على الذاكرة سواء أكان ذلك بالخير أم بالشر . «إذا حزمت أمرك فلا تعاوده» تلك كانت إحدى الحكم المفضلة لدى أللنبي ، وقليل من له القوة التى يطبق بها تلك الحكمة تطبيقاً كاملا مثله .

إن قليلا من الجنرالات عامة — وبالتأكيد قليلا من المحدثين منهم — من كان له من التجربة ما كان لأللنبي كقائد فى الميدان وفى أماكن التدريب ففى الخدمة العاملة قاد فصيلة فى زولولاند وبتشوانالاند وكتيبة وفرقة فى حرب جنوب إفريقية ثم فيلقا وجيشا وأخيراً قاد حملة مستقلة فى الحرب العظمى . وفى السلم قاد ودرّب فرقة وآلايا ولواء . وذلك لعدة سنوات فى كل قسم من الأقسام السابقة . ودرس إلى التجارب العملية نظريات مهنته دراسة جدية ونجح فى كلية أركان الحرب وعين مدرسا بها فكان عظيم الكفاءة . ومن الصعب على أى ناقد أن يعثر على نقص فى استعداده الفنى للقيادة .

ومع ذلك فلم يكن ضيق الأفق العقلى كالمختصين بل كان مدى هواياته غير عادى كمعلوماته خارج مهنته وكل ما كان يعرفه حربيا ومدنيا — فانما يعرفه حق المعرفة فلم تك معلوماته سطحية كأى محدث خاو أو ضابط مدع يفهمه الناس على حقيقته كذلك اتسع نطاق رجلاته واستعمل عينيه وأذنيه ولسانه بدراية وفهم .

إن الخلق فى كل المهن — وخاصة الحربى منها — أعظم قيمة من العقل أو التجربة ويمكن القول بكل تأكيد بأن خلق أللنبي واف بأنسب ما تتطلبه

المهنة الحربية القاسية من شروط ؛ فشجاعته الجسمية والعقلية عظيمة كاملة حتى ليحسبها أمراً عاديا لا يحس وجوده . يتصرف بسرعة وثبات ساعة الخطر لا لأن الخطر يحفزه ولكن لأن هناك عملا يجب أن يتم للحظته . أما ولاؤه لرؤسائه فتدل أعماله عليه فما نبس بكلمة نقد لأوامرهم أو لقراراتهم . ذلك إلى صفة أخرى ربما ندر وجودها هى ثقته بمرءوسيه . فالشجاعة والثقة والاستقامة كلها كانت خصائصه وهى بالتأكيد الصفات الاساسية الواجبة لمن وضع بين يديه خير وشرف أناس كثيرين .

فما الذى كان ينقص أللنبي إذن حتى اعترف البعض بعظمته على مضض ؟ وحتى كانت شخصيته غير مقربة إلى الجماهير فترة طويلة من حياته العسكرية ؟ كان ينقصه قدر من ضبط النفس وقليل من التعاطف والقوة التى تثير الحماس وتلهم الأتباع . ولئن أساءت إلى سمعته أبلغ الاساءة انفجارات غضبه الفجائية وما كان يبديه أحياناً من عدم ضبط النفس حتى ليكاد أن يشبه فى ذلك الأطفال سيما وإنه لم يعن أبداً بإصلاح ما كانت تحدثه من أثر (فلن يعرف قلة ماتدل عليه تلك الصفات من طبيعة الرجل الحقيقية إلا من عاشوا بالقرب منه وشاهدوه فى كل يوم) فلم يفهم أللنبي مطلقاً أن العواطف لا العقل هى التى تقود الناس وتلك الوحشة التى كانت تشمله والايحاء بالسيادة العقلية فيه هى التى أبعدته عن قلوب ضباطه وجنوده . ربما كان ذلك عن عمد منه لأن أى تظاهر بالحب كان خليقاً أن يضايقه كل المضايقة . كان ينقصه دافع الطموح بينما كان الواجب دافعه الأول . والواجب أقل حفزاً للعمل من الطموح فى سبيل نهج فى الحياة أو من الحماس لقضية من القضايا

ولما أصبح جنرالا فى القيادة العليا كانت المفاجأة وسرعة الحركة سلاحيه الرئيسيين لهزيمة أعدائه . يضاف إلى ذلك قوة فى متابعتهم بغير هوادة . وتلك

هى الدروس التى سيلاحظها دارسو حملاته ، وربما لاحظوا إلى جانب ذلك ميله إلى انتهاز الفرص ولو أنه كان يبذل قصاراه للتقليل منها . فلم يكن أللنبى مقامراً لايبالى بل كان يحصى الاحتمالات بعناية حتى إذا رآها فى جانبه ورأى النصر راجحاً أقبل على المخاطر بغبطة إذ لم يؤمن أللنبى أبداً بالمبدأ الحديث القائل « بالسلامة قبل كل شىء » ذلك المبدأ الذى غالباً ما يكون علامة انحطاط الأعمال والحكومات والجيوش والأمم .

ولا ترجع مهارته فى وضع الخطط وخدع العدو إلى ومضات الإلهام الخاطفة وإنما ترجع إلى قراءة كثيرة ودراسة للمعارك الماضية وللظروف الحاضرة ولا يتحرك عقله بسرعة — إلا عند العمل — بيد أنه يسير بثبات.

وله صفة أخرى أقل ظهوراً وإن كانت الأساس الحقيق لانتصاراته تلك هى عنايته بالإدارة وهذا ماأوضحناه بالكتاب . ليست الإدارة صفة براقة ومع ذلك فهى جديرة بأن تلقى قليلا من العناية عند تدوين التواريخ الحربية . صاحت إحدى الشخصيات فى قصة من قصص سكوت « أين قرأت أن سيرتريسترام وزن القش والقمح ؟ أو أن سير لانسلوت وزع كتل الخشب أوأن أى فارس من فرسان المائدة المستديرة تنازل فساوم فى ثمن حزمة من القش ؟ » ولكن لولم يعن هؤلاء الفرسان حقا بتفاصيل شئونهم الداخلية لباءت مشروعاتهم بالفشل . وحقاً لم يرتكب أللنبي مثل ذلك الخطأ . نعم لم يتدخل مطلقاً فى التفاصيل لكنه مع ذلك كان يصر على أن يطمئن من حيث إتمام كل استعداد ممكن لتوفير الغذاء والذخيرة والاحتياطى ولضمان صحة جنوده وللعناية بالمرضى والجرحى إلا إذا كان يتعقب عدواً ، فعندئذ لا يحفل بتحذيرات ضباط التموين بل يدعو جنوده ليحيوا الحياة الشاقة وليقاتلوا فى

عنف وبذلك لا يدع للعدو فرصة الرجوع إلى القتال مرة أخرى .

كان أثره الشخصى فى طريقة قيادته أكثر ظهوراً عنده منه عند قادة الجيوش العظمى أى الجيوش الحديثة . فاذا وثق بضباطه أمضى أقل وقت ممكن فى المكتب وأكثر وقت مستطاع بين جيشه لا مع جنود المقدمة فحسب بل فى زيارة القواعد والمستشفيات والمصانع ومعسكرات التدريب أيضاً وكذلك كل المؤسسات التى يحيا بها الجيش ويتحرك ويقوم عليها . وكانت تعينه على ذلك بنيته ومظهره فله قدرة على احتمال الرحلات الطويلة فى الطرق المتربة المزدحمة وفى أشد الأوقات حرارة كل ذلك دون أن يظهر عليه أقل أثر للاعياء حتى تركت له قوة احتماله هذه فى نفوس جنوده أثراً لا يمحى ومن هنا لم يتطرق الشك لمن رآه من أولئك الجنود — وكلهم رآه — فى أن له قائداً حقا أو فى أن العمليات الحربية إن فشلت فسيعود فشلها إلى عجز فى القيادة أو ضعف فى قوة تصميمها .

وآراؤه فى الطاعة بسيطة : فالأمر هو الأمر والنظام هو النظام . طاعة دون سؤال ، فى كل الأوقات وفى جميع الظروف . وتشدده فى بعض الأوامر كضرورة إبقاء سيور الخوذ تحت الذقن وارتداء الخوذات الحديدية وبعض المحظورات كركوب الخيل بأردية قصيرة أو ربطها إلى جذوع الأشجار قد خلق كثيراً من القصص التى تروى عنه وترك وراءه فى عقول البعض صورة المستبد الأحمق يجد لذة فى تفاصيل تافهة عن الثياب والنظام . لم يكن ذلك حقا فالأوامر التى أصر عليها كان لها من الأسباب ما يبررها فى حين أنه كان يخفف ويلغى كثيراً من التقييدات التى ظهر له عدم ضرورتها . إنه ما اهتم مطلقا بسفاسف الملبوسات أو العادات . لكنه لم يسمح قط بالتغاضى عن مخالفة

الأوامر أو التساهل بحجة الظروف . ومن هنا كان تأنيبه لعدد من الجنود المنهوكين —وكانوا قاتلوا مدى ساعات — لأن سيور خوذهم مرفوعة ، ومنعه الأردية القصيرة حتى فى وادى الأردن الشديد الحرارة وهياجه حين رأى جثة جندى فى الخنادق وعلى رأسه قبعة عادية بدل الخوذة الحديدية .

ولقد أغفل ناقدوه أو هم لم يدركوا أن أللنبى نادراً ما كان يعاقب إلا بلسانه ومع ذلك فعندما كان رئيساً على إحدى الكتائب اعتقد بعض ضباطه أنه كان متسامحاً أكثر مما يجب ولما تولى القيادة العليا كان يراجع أحكام المجالس العسكرية أو المسائل الأخرى المتعلقة بالنظام ويجهد نفسه فى تفهم أى حالة تعرض عليه جانحاً إلى الرحمة ماوسعه ذلك .

وحقا قد غلبت الفظاظة على ألفاظه وعلى معاملته للضباط حتى الكبار منهم بل وفى بعض الأحيان على مرأى ممن هم أقل منهم رتبة . وكان ذلك مبغضاً من الكثيرين ولكن كان الواجب عند أللنبى فوق كل شيء أما المشاعر الشخصية — مشاعره هو أو مشاعر أى شخص آخر فتأتى بعد ذلك بكثير ولقد قال مرة لأحد ضباطه : « أنا لا يهمنى أن أكون مهذباً أو غير مهذب مع أى إنسان مادمت اعتقد أنه لا يؤدى واجبه » . ورغم ذلك فقد كان — فى نفس الوقت — يعطى الفرصة لكل شخص فإن بذل غاية جهده فنادراً ما ينقله من مركزه حتى لو كان هذا الجهد على غير مايرام ، إذ يفضل أن يخدمه رجل نزيه متوسط الكفاية يستطيع أن يثق به ولا يخدمه رجل أكثر كفاءة ولكن لا يضمن أمانته وولاءه .

كان أللنبى يحب انتقاء ألفاظه حتى ليظن احياناً متحذلقاً فى استعماله للإنجليزية . وأسلوبه الرسمى والعادى بسيط صارم ، جميل واضح ، من لغة

موطنه ، خال من الصفات والأحوال التي لاموجب لها ، وخال كذلك من الكلمات الدخيلة والمبتذلة . ومتى عرف شخص أسلوبه سهل عليه تسويد أى وثيقة له ، ولكن كم لقي منه الضباط الجديدون عليه مايؤلمهم لكثرة ما يحذفه مما كتبوه له للمرة الأولى . فكلمة حديثة مثل « dump » (ومعناها مخزن مؤن فى العراء) كان يستبعدها بتقريع مر من أى وثيقة رسمية تقدم له . ولو قد سمعها لتصنع عدم فهمها

حدث عقب موقعة بيرشيبه والاستيلاء على غزة أن أحس المكتب الحربي بأن تقرير أللنبي المختصر عن انتصاراته لن يروى ظمأ الجمهور للاخبار فأبرق بطلب زيادة فى المعلومات وأدرك ضابط من قلم المخابرات ماكان مطلوبا فكتب برقية مطولة أقرب إلى أسلوب مراسل حربي واسع الخيال ظافر بصيد لم يظفر به سواه . فلما عرضت على ألنبي انفجر غضباً لمحاولة إرسال مثل هذا التقرير المزوق الجدير بمراسل صحيفة — باسمه . وبعد أن هدم أللنبي بنقده المؤلف المسكين أملى هو تقريراً آخر رزينا عن العمليات الحربيةلا تكاد توجد به صفة واحدة وبالتأكيد لم يكن فيه ما يشبع رغبة الجمهور للتفاصيل الوصفية البراقة .

فإذا كان ما سردناه ملخصا صادقا لصفات ألنبي الحربية وأخلاقه فما أثر ذلك كله فى الحرب العظمى ؟ لقد عجب البعض أن يصبح ذلك الخائب بفرنسا هو المنتصر فى فلسطين . وعللوا ذلك إما بأن ظروف الحرب هنا أصبحت أيسر وإما بأن القيادة المستقلة كانت تلائم ألنبي أكثر . إن ذلك لشبيه بانتقال لاعب كرة فى إحدى المباريات من قلب الهجوم إلى مركز الجناح ثم إظهاره بعد ذلك لمهارة لم تكن فى الحسبان وإصابته الهدف إصابات عديدة رائعة .

ولكن لا بد وإن كان هذا اللاعب نفسه فى الحالين ماهراً قديراً إذ أن مجرد عبور البحر المتوسط لا يكفى لتحويل أللنبى من قائد خائب إلى قائد عظيم فلا مفر إذن من أن يحتاج فشله المزعوم بذلك الميدان الحرج الملىء بالأوحال فى فرنسا إلى المزيد من الدراسة . وحقا إن ما قام به اللنبى فى ذلك الميدان ليعادل — على الأقل — ما قام به أى قائد بريطانى غيره . فلقد احتفظ أللنبى بثباته فى فوضى الانسحاب من مونز « Mons » وفى الاندفاع المفاجىء نحو الأين « Aisns » كأى قائد آخر إن لم يكن أثبت من بعضهم . ربما لم يقم فيلق الفرسان بعمل ظاهر للعيان لكنه هو الذى غطى جناحى الجيش واضطر بذلك العدو إلى الاحتفاظ بقوة عظيمة من فرسانه خارج المعركة أما فى معركة أيبر Ypres الأولى فقد قام سلاح الفرسان بقيادة أللنبى بعمل عظيم من أعمال الدفاع لا نظير له فى التاريخ وذلك باشتباكه مع قوة هائلة من مشاة العدو ويرجع الفضل الأول فى ذلك — من غير شك — إلى ثبات القائد والمثل الذى ضربه بنفسه وإلى إرادته الحديدية .

ولقد انتقدت كثيراً قيادته التالية أى قيادته للجيش الخامس . فقيل إنه أضاع حياة عدد من جنوده بقيامه بهجمات أو بهجمات مضادة فى ظروف يعتبر النجاح فيها صعبا أو مستحيلا . ولكن تجب ملاحظة أن أللنبى إنما تولى قياده هذا الجيش فى أزمة موقعة أيبر الثانية عند ما كان القتال محتدما وبعض الأراضى قد فقد فعلا وحين بدا من المشكوك فيه الاحتفاظ بايبر نفسها وبذلك لم تتح له حينئذ معرفة طبيعة الأرض أو صفة الجنود قبل القيام بمقاومة الهجمات المضادة العنيفة المتجددة . وذلك بينما قد أمر بالاحتفاظ بمواقعه بأى ثمن . ولقد نجح فى ذلك بجحح من غير أن يفقد الجيش إلا قليلا

من الاراضى وفى أدوار المعركة النهائية . فنى مثل تلك الظروف كان لا يسع ألنبي أن يأتى غير ما آتاه . بل ربما أنقذ أللنبي بتصميمه ذلك مدينة أيبر نفسها . ولكن لسوء الحظ صوّره مسلكه الخشن فى صورة قائد فظ عنيد لا هم له سوى الهجوم إلى الأمام من غير مبالاة .

أما قيادته للجيش الثالث فقد دلت على أنه لم يكن عديم الاهتمام بأرواح الجنود . فنى الأحوال العادية كانت نسبة خسائره فى المحافظة على الخطوط أقل كثيراً منها فى الجيوش الأخرى وربما رجع بعض ذلك إلى جودة خنادقه وإلى أن أللنبي كان يقلل جداً من الهجوم على الخنادق ذلك الهجوم الذى يسبب الخسائر من غير مبرر ويؤدى لأعمال انتقامية فادحة . وهنا أيضاً كانت خشونته وانفجارات غضبه المقياس الذى يحكم به الجيش عليه . ففى معركة آراس « Arras » كان المجد الذى ظفر به أقل من المجد الذى يستحقه . إن يوم ٩ أبريل سنة ١٩١٧ لهو أمجد أيام قتال القوى البريطانية بفرنسا فى مدى عامين ونصف وإن كان ما أعقبه من بطء التقدم وفداحة الخسائر قد قلل من قيمة ذلك النجاح . وحتى فى هذه الهجمات الأخيرة كانت الخطة من وضع القيادة العليا . وفى الوقت الذى لم تستبدل فيه أبداً جنود الجيش الثالث المنهوكة بقوى جديدة كما حدث فى المعارك العظمى فى السوم أو فى باسشندال .

أما الهجوم النهائى الكبير فى معركة آراس Arras وهو الذى تمت خيبته تقريباً — فقد أمر ببدئه فى الظلام وفقاً لآراء قائد جيش آخر وعلى الرغم من احتجاج أللنبي المتكرر .

وبينما استفاضت شهرة اللنبي بين ضباط فيلقه وجنوده بأنه رجل غضوب كثير الضجيج إذا به فى نظر ضباط أركان الحرب صموتاً إلى حد ما ، عديم

التأثير فى الاجتماعات الدورية لقادة الجيش فلم يظهر فيها بالمظهر الذى أوجبته مزاياه . لم يكن يحب النقاش فعقله كالبارجة . قوى راجح يتطلب الفراغ والزمن للمناورة والعمل . ولم يكن قط على وفاق مع هيج بل كان كل منهما أميل لى الصمت فى حضرة الآخر .

وهكذا — بخلاف الأنبياء — كان التقدير الذى ظفر به أللنبي فى فرنسا قليلا ، أما فى محيطه هو الخاص — محيط الذين عملوا بالقرب منه — فقد اعترفوا جميعاً له بكفاياته وصدق خلقه ، ولو أن اعترافهم هذا لم يكن ليضعف من الرأى العام للجيش فيه إلا بمقدار ما يغير مقال فى مجلة شهرية متزنه من رأى كونه الجمهور من الجرائد اليومية المنتشرة . لقد كانت لأللنبي بفرنسا « صحافة » سيئة وبذلك تأثرت شهرته ولو درس سجل أعماله الحقيقى لدعى ذلك إلى مقارنته بما قام به أى من معاصريه .

وما بنا من حاجة إلى استعادة انتصاراته بفلسطين فالأسلوب الذى تمت به يجعله بحق أعظم قائد بريطانى فى الحرب العظمى . فمن حيث العبقرية الوقادة فاق هو هيج ذو العقل المتزن وإن كان فى مثل عزيمته وشجاعته ، وفاق « پلمر » فى قوة التوجيه ولو أنه أقل منه تعاطفا . وكان أقوى من « رولنسون » وإن كان فى مثل مهارته ، وهو أوسع أفقا من « مود » وأكثر تجربة فى القيادة من « روبرتسون » وأعظم ثباتا من « هنرى » القلّب . لقد كان من طراز « ولنجتون » الذى يشاركه فى كثير من النواحى ، فى واقعيته الصائبة وميله الطبيعى لاخفاء نواياه وفى مفاجأة عدوه وتقديره لقيمة الإدارة بل وفى نقص التعاطف لديه .

فهل لنا أن نضع أللنبي بين الطبقة الأولى من القواد البريطانيين ؟ تلك

الصفوة القليلة وعلى رأسها « مارلبرو » هذا الذى تدعو عبقريته إلى مقارنتها بعبقرية نابليون أو عبقرية أى قائد عالمى عظيم . إن من يفوقه بالتأكيد قليل . نعم ربما كانت تعوزه بعض حمية « كرومويل » وحيويته المبدعة ، أو ينقصه تطبيق « ولنجتون » الهادىء وحيوية « ولف » النارية كما قد ينقصه عطف « مور » الحار ومقدرة « كتشنر » المنظمة . ولكن لم ير الجيش البريطانى سوى قلة من القواد كانوا أحسن عدة فى العقل والجسم لمحنة الحرب ، وأقل استعداداً لفقد شجاعتهم فى أحلك الساعات وأكثر قسوة فى استعجال الفائده وإتمام النصر . وبالتأكيد لم ير الجيش البريطانى من هو أعظم منه إحساسا بالولاء والواجب ، أو أكثر منه صدقا واستقامة طبع ، وهذه هى مميزات الفطرة العظيمة الكريمة .

مخلفات الحرب . آثار الحرب

سوريا وفلسطين

من نوفمبر ١٩١٨ إلى يونيه ١٩٢٠

وُقّعت الهدنة مع تركيا فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ فأصبح اللنبى بعدها سيد فلسطين وسوريا . ولقد حطمت حملته الخاطفة — التى اندفعت بجيوشه من قرب يافا إلى شمال حلب أى مسافة ٢٥٠ ميلا فى أقل من ستة أسابيع — قوات العدو المواجهة له تحطيما تاما،حتى ظن أنه قاض بذلك على كل الصعوبات الحربية فى الشرق الأوسط . ولكن الحرب تخلق الجديد من المشاكل بقدر ما تحل القديم منها .

ففى أواخر سنة ١٩١٨ وأوائل سنة ١٩١٩ رأى أللنبى أن انتصاره التام قد أنبت له بذور خلافات كانت تحجبها ضرورات الحرب وكانت هذه خلافات سياسية أكثر مما كانت حربية . وأصبح بذلك عليه — باعتباره القائد العام — أن يجد لها — على الأقل — حلا مؤقتاً إلى أن يضع مؤتمر السلام قراراته . فبات عليه تنظيم الإدارة فى سوريا كلها وفيها الفرنسيون والعرب يؤيد كل منهما مطالبه بحماس وعنف ؛ وفى منطقة شمال حلب رفض الجنرالات الأتراك بقواتهم الكبيرة المسلحة — الخضوع لشروط الهدنة ؛ بينما كان السكان من الأرمن يستصرخون للحماية، كما أثارت مسائل ومواعيد تسريح الجيوش قلق الجنود المنهوكين وكان من المحتمل أن يصبح ذلك مصدر عناء إن لم يعالج بعناية ؛ ثم كانت هناك مشكلة التخلص من عدد

هائل من أسرى الترك إلى معالجة اللاجئين الأرمن والتصرف فى كميات كبيرة من الحيوانات ومخزونات أخرى مختلفة ، كل ذلك فوق الإدارة اليومية لعدد كبير من الجنود موزعين فى منطقة صعبة المواصلات يبلغ طولها بضع مئات من الأميال ويتراوح عرضها بين خمسين ومائة ميل .

فى بادىء الأمر كانت المصاعب فى الجبهة فقط ، فى الأماكن الحديثة الغزو بينما قامت الادارة اليومية فى فلسطين خلف الجبهة بعمل باهر ، فحتى ذلك الحين لم يكن قد اتضح بعد ماينذر بالنتائج التى ستترتب على وعد « بلفور » أو ماينذر بالنزاع بين العرب واليهود ذلك النزاع الذى سبب كل هذا العناء والحيرة فى البلاد المقدسة . أما بعيداً فى مصر فقد بدا هناك كل شىء على مايرام حيث ظل المصريون هادئين يظهر عليهم الرضا طول الحرب لما جلبته لهم من أرباح وافرة إذا لم يكن يقدر أحد قوة العداء الذى أثارته شكاوى حقة كانت تضطرم فى نفوس المصريين — المتعلمين منهم والفلاحين — وكانت خليقة أن تنفجر بمثل تلك المفاجأة والوحشية .

وأول ماشغل أللنبي كان تنظيم سوريا وفلسطين المحتلة وقد وضع أسس ذلك قبيل عقد الهدنة مع تركيا وأصبحت كل فلسطين تسمى « أراضى العدو المحتلة الجنوبية » وتولى قيادتها الماجور جنرال « سير آرثر مونى » وكان بالفعل يدير ذلك الجانب من فلسطين الذى احتل قبل الهجوم النهائى . أما الجزء الساحلى من سوريا ما بين اسكندرونة وعكا بما فيه بيروت ولبنان فقد وضع تحت الإدارة الفرنسية وأطلق عليه أولا « إدارة أراضى العدو المحتلة الشمالية » ثم فيما بعد « الغربية » أما « إدارة أراضى العدو المحتلة الشرقية » والتى يديرها العرب فقد كانت منطقة فسيحة غير محدودة إلى حد ما تمتد من حلب

إلى دمشق شرق المنطقة الفرنسية ومن هناك تتجه جنوباً حتى تشمل حوران والبلاد المعروفة الآن بشرق الأردن . وفيما بعد عند مااحتلت سيليسيا Cilicia فى ديسمبر سنة ١٩١٨ تألفت منطقة جديدة أطلق عليها « إدارة أراضى العدو المحتلة الشمالية » وتولى إدارتها أحد الفرنسيين ثم غير بعد ذلك اسم « إدارة أراضى العدو المحتلة الشمالية » «بإدارة أراضى العدو المحتلة الغربية » ووضعت جميع هذه الادارات الأربع تحت سلطة أللنبي المباشرة وأصبح هو قائدها الأعلى ومن ثم أخذت ترسل مشاكل النقد والمالية والأشغال العامة والبوليس والقضاء واللاجئين وإنقاذ الفقراء وما إلى ذلك بلغات ثلاث إلى قيادته العليا للتصرف ، كل ذلك فى الوقت الذى رفض فيه الجنرال المختص بالتموين — وكان اسكتلندياً حذراً — أن يسمح لضباطه أو لمستشاره المالى بأى نوع من أنواع التدخل لتسيير دقة الأمور فى إدارة أراضى العدو المحتلة وبذلك غرق ضباط القيادة العليا وهم يقتحمون فيما خشى الضباط المساعدون أن يطأوا بأقدامهم فيه من المشاكل المالية والقانونية والادارية المعقدة . أما فيما وراء إدارات أراضى العدو المحتلة فقد كانت الادارة عسكرية محضة وتحت إمرة قائد فيلق الفرسان الصحراوى الجنرال سير « هارى شوفل » الذى استخدم الموظفين الاتراك فى منطقة شمال خط بغداد الحديدى تلك التى تشمل مدن ماراش وعنتاب Aintab وأورفا Urfa وقد أحتلت فى آخر سنة ١٩١٨ منعاً للجيوش التركية المنسحبة من تذبيح الأرمن

ولقد طفق أللنبي كعادته يذرع المنطقة التي يديرها ويحل المشاكل فى موضعها على قدر ما كان يستطيع ، وامتدت مسئولياته من قاعدته فى مصر — وكانت لاتزال تحت الاحكام العرفية — فعبرت سيناء — معتمداً على الخط الحديدى

الحربى فى مواصلاته — لتشمل كل فلسطين وشرق الأردن وسوريا ثم انتهت إلى أماكن تبعد عن حلب بأكثر من مائة ميل إلى الشمال والشرق . وامتدت فى سيليسيا حتى جبال طوروس فى الشمال الغربى حيث جعل من حيفا على جبل الكرمل مركزاً لقيادته يوم ذاك .

ولكن سرعان ماقامت مشاكل دقيقة تستدعى منه الحل السريع . وكان أهمها رفض بعض الجنرالات الأتراك — وأشهرهم على إحسان باشا قائد القوة المنسحبة من جهة أراضى الجزيرة — تسريح جيوشهم تمشياً مع شروط الهدنة . ولما كان منالهم صعباً لم يرغب أللنبى فى الزج بنفسه أكثر من ذلك داخل أراضى تركيا ولذلك عول على استعمال الضغط على الحكومة التركية .

وما أهل فبراير سنة ١٩١٩ حتى كان أللنبى على ظهر البارجة تمرير مسافراً من حيفا إلى القسطنطينية وكانت يحتلها الحلفاء إذ ذاك ، وهناك اجتمع بوزيرى الحربية والخارجية التركيين . أما هذا الاجتماع فقد أظهر شخصية أللنبى فى أقصى سطوتها إذ أتى الوزيران التركيان وهما متأهبان للمناقشة والمحاجة فلم يكن من أللنبى إلا أن اكتفى بمجرد قراءة مطالبه المتضمنة عزل على إحسان ثم سلمهما صورة منها مصمما فى الوقت نفسه على ضرورة الموافقة فوراً دون مناقشة أو محاجة وأدهش ذلك الوزيرين التركيين غاية الدهشة حتى أسرعا بإعطاء الوعد باجابة تلك المطالب ، ولقد بلغ من تأثرهما الشديد بإصرار أللنبى ان عجلا بالتنفيذ فأبعد فى الحال على إحسان من قيادته وتوقفت بذلك المعارضة تماماً . وهكذا بقى أللنبى فى القسطنطينية ٣٦ ساعة , وأنجز غرضه فى ٥ دقائق بمجرد أن أبدى تصميمه الذى لاينثنى .

وكانت سوريا المشكلة التالية . ففى بداية سنة ١٩١٩ أخذ الاحتكاك بين

الفرنسيين والعرب يزداد وبلغ الغضب بالفرنسيين مداه لما اعتبروه تشجيعاً إنجليزياً للقضية العربية ومع أن طلب الفرنسيين للسيادة على سوريا كان يعتمد على العاطفة والتقاليد أكثر من اعتماده على أى حق من الحقوق أو حتى على المصالح الخاصة فان ذلك لم يمنع من اعتراف الحكومة الانجليزية بالسيادة الفرنسية فى اتفاق Sykes-Picot المشئوم . ومع ذلك فقد اشتكى الفرنسيون من أن الضباط البريطانيين يؤيدون صراحة مطالب العرب فى إدارة سوريا كلها وزادوا فاتهموا أللنبي نفسه بالتحيز وإن يكن موقفه هو كان كما كتب لأحد أصدقائه فى ذلك الوقت « علىّ عمل الكثير من الأمور وأمامى الكثير منها للتفكير فيه . إن كل الأمم وكل الراغبين فى أن يصبحوا أمما وجميع أنواع الديانات والمذاهب السياسية كل أولئك قائم الواحد منها فى وجه الآخر ، وكل منها يحاول أن يجذبنى إلى جانبه ، ولكنى ما زلت محتفظا بغايتى ، وأعرف أن علىّ أن أسير بحذر » .

ولما ذهب فيصل إلى أوربا ليدافع عن القضية العربية استُدعى اللنبي ، فى أوائل مارس سنة ١٩١٩ ليحضر مؤتمر السلام ، وليدلى بآرائه فى المسألة السورية . وتحدث فى اجتماع عقد بباريس فى ٢٠ مارس ١٩١٩ ، فقال : إنه لو فرضت فرنسا حكمها على سوريا بغير رغبة أهلها ، فستقوم الاضطرابات بين الفرنسيين والعرب . بل ربما قد تقع الحرب بينهما ثم إذا باللنبي يستلم — فى اليوم التالى — من الوزارة تعليمات بالعودة إلى مصر ليقوم بمنصب المعتمد هناك ، وليعيد النظام ، ذلك ولم يكد يمضى على وجوده بباريس أكثر من ستة وثلاثين ساعة .

وقبل أن نلم بأسباب هذا التعيين المفاجىء يجمل بنا ذكر أهم الحوادث

التى وقعت فى سوريا بعد ذلك ، فعلى الرغم من أن اللنبى قد استمر مسئولا عن إدارة سوريا العسكرية مدة السبعة أو الثمانية الأشهر التالية إلا أن مصر كانت حينئذ شاغله الأول ، لقدقررمؤتمر السلام — الذى استدعى منه اللنبى بمثل تلك السرعة — تأجيل الحل العسير بتعيين لجنـــة من مندوبى أمريكا وانجلترا وفرنسا لتزور سوريا ، وتتحقق بنفسها من مطالب السوريين ، ولو قد تم ذلك لكان متفقاً مع الوعد الذى سبق لألنبى أن أعطاه لهم باسم الحكومتين الإنجليزية والفرنسية فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ بعيد عقد الهدنة مع تركيا ، وقال فيه : إن غرض الحلفاء هو أن يقيموا حكومات وطنية يختارها الأهالى بمحض إرادتهم . وأناب البريطانيون سير « هنرى ماكاهون » و « و . ج . هوجارت » ، وكلاهما معروف تماماً بنزاهته وحسن سمعته وثقافته ، وأناب الأمريكيون « شارل كرين » ودكتور « ه . ك . كنج » أما الفرنسيون فلما أدركوا كره الشعب لهم فى روسيا رفضوا مشروع ذلك التحقيق ، وامتنعوا عن تعيين أى مندوب لهم على الإطلاق ، مفضلين بلوغ غاياتهم باستعمال الضغط السياسى فى باريس ، وأدرك البريطانيون الإدراك كله أن الفرنسيين سيرفضون الموافقة على آراء لجنة لم يمثلهم فيها أحد ، ولكنهم مع ذلك لم يجدوا وسيلة ما يقنعون بها الفرنسيين لتعيين مندوبيهم . وعلى هذا فقد ذهب الأمريكيون — وحدهم — إلى سوريا ، وأظهر بعد ذلك تقريرهم أن السوريين سيرحبون بانتداب أمريكى ، وسيرضون عن انتداب انجليزى ، لكنهم سيرفضون الانتداب الفرنسى ، كما بين أنه يجب معاملة سوريا وفلسطين باعتبارهما وحدة لا تنفصل كما كانا أيام الحكم التركى . إلا أنه قبل عودة المندوبين الأمريكيين — وفى الواقع قبيل مغادرتهم سوريا — استطاعت

الدبلوماسية الفرنسية — وكانت تعمل بين مساومات المؤتمر الملتوية — أن تصل إلى أغراضها فى سوريا ، فلكى يحتفظ البريطانيون بالعراق وفلسطين اضطر رئيس الوزارة البريطانية إلى الموافقة على وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسى ؛ وهكذا لم يتح للتقرير الأمريكى حتى مجرد الظهور .

وعلى الرغم من أن الانتداب لم يكن قد قرر بعد ، ومن أن مؤتمر السلام لم يكن قد انتهى إلى شىء فقد ظفر الفرنسيون من الحكومة الانجليزية — وكان يزداد فزعها حينئذ من جراء تكاليف جيوش الاحتلال الباهظه — بالموافقة على أن يحل الفرنسيون محل الانجليز فى سوريا خلال خريف سنة ١٩١٩ وفعلا تم سحب الجيوش الانجليزية واستُبدلت بوحدات فرنسية فى نوفمبر وكادت تنشب بسبب ذلك الحرب بين العرب والفرنسيين بين دمشق وبيروت لولا أن حال دون ذلك نفوذ أللنبى وحده فقد اتفق أن كان وقتئذ بصحبة القائد الفرنسى الجنرال جورو فأرسل اللنبى أحد ضباط القيادة ليقف بين القوتين وليثنى العرب عن هجومهم . وكان ذلك آخر عمل له فى سوريا تأجل به النزاع حتى يوليه سنة ١٩٢٠ حين تجددت الأعمال العدائية نتيجة لإعلان شروط لانتداب فرنسى على سوريا . واحتل الفرنسيون دمشق بعد معركة قصيرة وغادر فيصل البلاد وكما هو معروف عوّض الانجليز فيما بعد حلفاءهم العرب بما كان فى مقدورهم . إذ أقاموا فيصل ملكا على العراق وأخاه عبد الله على شرق الأردن .

ويمكننا تلخيص قصة فلسطين أيام اللنبى هنا . فقد كانت سياسته أن يديرها — قدر المستطاع — وفقاً لما تمليه القوانين الدولية التى تطبق على بلاد الأعداء المحتلة فى الحرب وكانت تقضى بأن يكون الحاكم مجرد أمين ليس من

شأنه أن يغير من الأوضاع القائمة أو القوانين الموجودة إلى أن تقرر معاهدة السلام مصيرها . وكان ذلك فى نظر أللنبي مانعاً من منح القضية اليهودية أى امتياز من الامتيازات حتى يضع مؤتمر السلام قراراته . ولكن على الرغم من كل ذلك وضد كل القواعد المقررة أرسلت وزارة الخارجية البريطانية لجنة صهيونية إلى فلسطين فى ربيع سنة ١٩١٨ . ولكن أللنبي استمر فى حرصه على التفسير الحقيقى لواجبات الإدارة الحربية ماأمكنه ذلك حتى أصبح هدفا لنقد بعض ضيق الصدر من الصهيونيين . ولما أن اعتبر ضابط أللنبي السياسى كولونيل ماينترزهاجن Meintzerhagen — وكان ضابطاً بقلم المخابرات سنة ١٩١٧ — أن أللنبي لم يتبع سياسة وزارة الخارجية حسب تصريح بلفور أرسل إلى الوزارة رسالة فى هذا المعنى فلما رآها أحد أصدقائه أنذره بأن أللنبي لن يسمح لأحد ضباطه بمثل ذلك النقد وأجاب ماينترزهاجن باحتمال ذلك ثم مضى مصراً على القيام بما يعتقده من واجبه . ولكن جاء عزله أسرع مما تنبأ به صديقه فقد تم ذلك فى الحال عقب رؤية أللنبي لنسخة من تلك الرسالة ومع ذلك فلم يكن ماينترزهاجن بالذى يخشى أللنبي بل كان يقابله مقابلة الأنداد وكان تعليقه الوحيد « كنت أحسبك تعتقد أن من الواجب عليك أن تعطى خادمتك مهلة أطول بعد إنذارها » فضحك اللنبي وافترقا وهم أصدقاء . لقد كانت لهما هواية واحدة هى دراسة الطيور .

وفى أواسط سنة ١٩١٩ حل الماجور جنرال سير « هارى واتسون » محل سير « آرثرمونى » كحاكم عسكرى على فلسطين ثم حل مكانه هو أيضا الماجور جنرال سير « لويس بولوز » الذى كان رئيساً لأركان حرب أللنبي . وقد انتهت الإدارة العسكرية نفسها فى آخر يونيه سنة ١٩٢٦ حين أصبح سير « هربرت

صموئيل ، أول حا ،دنى هناك . أما تقدم التجربة الصهيونية فيما بعد ، نجاحها وفشلها ، والرخاء الذى أتت به والبغض الذى أثارته وما فى ذلك النزاع المشئوم من صواب أو خطأ كل ذلك لحسن الحظ خارج عن نطاق هذه الترجمة

لقد احتفظ أللنبي جهده — بحياد دقيق فى كل هذه الخلافات السياسية فى سوريا وفلسطين إن عطفه كان — ولا شك — مع فيصل والعرب لكنه استعمل سلطته ونفوذه ليبقى العرب ضمن النطاق الذى وضعته حكومات الحلفاء مدة إدارته لسوريا . وكان من رأيه أن تشجيع وزارة الخارجية للحركة الصهيونية إنما هو عمل سابق لأوانه إذ لا تزال فلسطين تحت الادارة العسكرية والقانون الدولى يمنع من أى تغيير رئيسى فيها ، ومع ذلك فلم يكن أبداً معاديا لرغبات اليهود فيما يختص بزيادة الهجرة وليس من الممكن بعد ذلك أن ننسب اليه أنه كان يتوقع كل الأخطاء التى جلبتها التجربة الصهيونية .

مصر — الحماية

مارس سنة ١٩١٩ — فبراير سنة ١٩٢٢

ربما يختلف ما يصيبنى من خير وما يصيبك من خير ، ولكن الخير أو الشر الذى يُجبر الناس عليه خليق أن يضج منه الشعب ألماً .

(الملك فيصل . . . ذكرت فى كتاب لورنس)

غضب أمة (مارس — أبريل سنة ١٩١٩)

قليل من الانجليز — حتى من الذين عرفوا مصر جيداً — من نظر فى مارس سنة ١٩١٩ إلى المصريين على أنهم أمة بمعنى الكلمة ، وقليل منهم من وجد لغضبهم سبباً معقولا . فلما كنا مشتغلين بالحرب أوشكنا أن نقطع خلالها كل صلة لنا بالشعور المصرى حتى لقد بلغ الأمر بنا أنّ حسبنا إعلان الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٣ — الذى كان مجرد إجراء حربى — والذى حسبه كذلك أغلب المصريين — تقريراً لمستقبل مصر وبذلك لم يعد يحتاج هذا المستقبل فى نظرنا إلى أى تغيير عاجل . لم تحدث الحماية يومئذ فى نظام الحكومة المصرية سوى تغيير بسيط . فقد بقيت وزارة الخارجية الوحيدة بغير وزير مصرى إذ أحيلت أعمالها على المعتمد البريطانى وبينما لم تمس [illegible] تلك الامتيازات — التى تستثنى الأجانب استثناء كبيراً من السلطات القضائية والتشريعية والمالية — كان من أهم مزايا الأحكام العرفية التى أعلنت فى نوفمبر سنة ١٩١٤ أن أعطت مراسيم الوزراء المصريين سلطة التنفيذ على الأجانب رغم هذه الامتيازات .

ولقد فسر هدوء مصر فى ظل الأحكام العرفية مدة الحرب بأنه موافقة منها أو على الأقل عدم اهتمام بالحالة الراهنة . ومن الوجهة المادية كانت مصر فى رخاء شامل إذ قفزت فيها أثمان القطن — محصولها الرئيسى — قفزة لم يحلم بها أحد ، بينما دفع الجيش أثماناً طيبة لكل ما اشتراه من العلف والحيوانات والمحاصيل الأخرى ، كما كانت مرتباته التى يدفعها عالية إلى إطعامه الفلاحين المجندين فى الفرقتين العظيمتين فرقة الجمالة المصريين وفرقة العمال المصريين الطعام الحسن كل ذلك زيادة على ما أنفقه الجنود أنفسهم بسخاء فى القاهرة والإسكندرية وبعض الأماكن الأخرى ، ثم إن مصر قد تمتعت بكل مزايا الحرب الطويلة المضنية من غير أن يصيبها هى شىء من خسائرها . فلماذا إذن لا ترضى ؟ أو لم يبلغ الجحود بها أن تعض اليد التى أطعمتها بسخاء كل تلك السنوات التى كان فيها الفزع والفقر والموت نصيب كثير من الشعوب ؟

وطبيعى أن يكون هذا رأى الجنود الذين يؤلفون جمهرة البريطانيين فى مصر أواخر الحرب فقد انحصر كل تفكيرهم ونشاطهم فى الأعمال الحربية ولم يسمح لهم وقتهم بالعناية بالمسألة المصرية أو حتى بمشاعر المصريين . أما القلة المستنيرة من موظفى وزارة الخارجية وموظفى المصالح المدنية والضباط الحربيون الذين اشتغلوا بمسائل الأحكام العرفية والأمن العام والبريطانيون المقيمون فى مصر والذين اتخذوها وطناً ثانياً لهم فقد أدركوا كلهم تلك المشاكل والأخطار وإن كانوا قد فشلوا جميعاً فشلا تاماً فى تقدير نمو الروح الوطنى وفى تقدير قوة إحساس المصريين — المتعلمين والأميين من الفلاحين — بآلامهم ، كما لم يدركوا أن تلك الأمة قد وجدت لها زعيما يعبر عن روحها وغضبها .

ولقد بدأ نمو هذا الوعى الوطنى قبل الحرب بزمن بعيد نتيجة لحرية القول والفكر والرخاء المادى الذى جلبه الاحتلال البريطانى ، ثم أثارته الجمعية التشريعية التى أنشأها كتشنر سنة ١٩١٣ ويرجع ازدهاره السريع فى نهاية الحرب — غالباً — إلى ارتوائه من مذاهب تقرير المصير وحقوق الأمم الصغيرة التى نادى بها زعماء الحلفاء السياسيون أثناء الحرب وخاصة ذلك المثالى المدرسى الرئيس ودرو ويلسون .

بل حتى أولئك الذين كان أولى بهم أن يميلوا نحو بريطانيا العظمى — السلطان المدين لهم بعرشه ، ورشدى رئيس الوزراء الذى أدار دفة الأمور بمصر مدة الحرب . والوزراء الآخرون ، وكبار الملوك الذين أثروا ثراء كبيراً من بيع القطن (طبقة الباشوات) قد خاب ظنهم لعدم اعتراف بريطانيا بمساعدة مصر لها فى مجهود الحرب فبينما سمح لعرب الصحراء بحضور مؤتمر السلام وعرض قضيتهم فيه ، كما سمح كذلك للقبرصيين والسوريين ، عومل المصريون — وهم الأكثر منهم مدنية — كما لو كانوا مستعمرة بريطانية إذ رفض السماح لهم بالاشتراك فى المؤتمر ، ولربما أحس المصريون حينئذ إحساس صاحب المنزل استعمل منزله — مدة طويلة — فندقا من نزلاء — ولو أنهم دفعوا له أجر إقامتهم — إلا أنه لم يدعهم بنفسه — ثم ظلوا فيه دون أن يقدموا كلمة شكر له .

أما شكايات طبقة الأفندية فترجع فى أساسها إلى الأثر المنتظر من التعليم الأوربى فى العقل الشرقى المستعد بطبيعته لاستيعاب العلم بسرعة ولكن بغير تعمق مع فقد الثبات الخلقى الذى يجب أن يحدثه العلم . فقد أنشأ ذلك التعليم طبقة متزايدة من الراغبين فى الوظيفة الحكومية أو فى المحاماة . ولما زاد

المتخرجون عن الحاجة تحولوا إلى السياسة والصحافة والتهييج . وكان اعتقادهم البسيط أن الحكم الانجليزى وقد هيأ للتعليم بقاءه عليه كذلك أن يهيىء للمتعلمين العمل الهين المضمون . وعلى هذا بدت لهم كل وظيفة يشغلها فى الحكومة انجليزى كأنها اعتداء على حقوقهم . غير أنه يجب الاعتراف بأن صفات الموظفين البريطانيين قد انحطت أثناء الحرب لذهاب الكثيرين من خيرتهم إلى ميادين القتال على حين كان عددهم آخذاً فى الازدياد قبل الحرب بسنوات عدة . وذلك ما أحنق المصريين . وإذن فمن وجهة النظر المصرية انحطت المساعدة البريطانية بينما ازداد التدخل البريطانى .

وأما شكاوى الفلاحين فكانت أبسط من ذلك وأكثر مادية ، فقد ازدادت حاجات الجيش — كلما تقدمت حملاته — إلى العمال والحيوانات والمواد الغذائية ولم يعد التطوع يكفى وحده للوفاء بها وبذلك لم يجد رجال الحرب وسيلة للحصول على حاجاتهم — سوى الضغط على الحكومة المصرية وأدى ذلك بدوره فى النهاية إلى أشنع صور الضغط فى القرى . فراحوا يجندون الناس رغم إرادتهم فى فرقة العمال وأخذوا يستولون على حيواناتهم ومحصولاتهم حتى كانت تؤخذ منهم أموالهم أحياناً باسم اكتتاب للصليب الأحمر . وكما يحدث دائماً فى مثل تلك الاضطهادات وقع العبء الأكبر على أشد الناس فقراً وأقلهم نصيراً من غير أن يدرك الجيش والموظفون من الانجليز كل تلك المظالم التى ترتكب باسمهم . ولكنهم — بالطبع — مذنبون فى نظر الفلاحين . لقد أغضى الفلاحون عن الحكم الانجليزى لحمايته لهم من الظلم أما وقد أصبح الانجليز هم أيضاً ظالمين إذن فليسقط الأجانب الملاعين . وما حل عام ١٩١٩ حتى تهيأت فى الدلتا مواد كثيرة تنتظر الاشتعال .

لم يكن الرجل الذى أشعلها وهو سعد زغلول — ذلك الذى قدر له أن يصير البطل الوطنى والمناهض الأول للسياسة البريطانية فى الثمانى سنوات التالية — غير خليق بتمثيل مزايا قومه وعيوبهم . كان رجلا من الشعب كعرابى باشا الذى سببت ثورته الاحتلال البريطانى كما كان أول مصرى صميم من غير طبقة الحكام القديمة من الأتراك يتولى منصب الوزارة . وكان نزيها وطنياً وهب القدرة على الخطابة المؤثرة الحية والمقدرة الدقيقة على رؤية وتقدير الجانب الفكاهى للأشياء . وكان طويلا نحيفاً بارز عظام الخدين ضيق العينين وكان شجاعا صريحا فى بعض الأحيان متردداً خائفاً فى أحيان أخرى ، ويستطيع أن يكون جذابا لو لم يكن طاغية فظاً من حين إلى آخر . ولأنه لم ينجب سرته جداً صحبة الأطفال . وكان نبيلا مهذبا مع النساء دائماً وتعتبر حياته الزوجية المثل الأعلى للصداقة — زوجته بنت رئيس وزراء معروف هو مصطفى فهمى باشا تعاون فى إخلاص مع اللورد كرومر سنوات طويلة — ولم يكن سعد يطيق تعذيب الحيوانات . حتى أنه عند ما كان منفياً فى جبل طارق سنة ١٩٢٣ دعى لزيارة مدينة أسبانية أقيمت بها مصارعة للثيران كاد يرى ذلك حتى صدمه المنظر وغادر المكان فى الحال بطريقته التى لا تقلد ثم أعلن لمضيفه فى قوة رأيه فيه وفى الذوق والثقافة الأسبانية وكان مما قاله له « إن الحيوانات لا تستطيع الكلام لكنها تفهم . بينما البشر يتكلمون ولكن غالباً لا يفهمون » . لم يكن زغلول زعيما بطبيعته كما اكتشف ذلك بسرعة من اختاروه فى الأصل لذلك المركز ، وكثيراً ما كانت تروعه هو تلك المكانة الخطيرة التى وجد نفسه فيها ، ومع ذلك فقد كان مغروراً غيوراً على زعامته كما كان طموحاً . والطموح كما قال مارك أنتونى « يجب أن يكون من طبيعة بالغة الجد والقوة » ولكن

قليلا مايغرى التعب والخطر المتعلم العادى من المصريين . فكان زغلول مستعداً للمتاجرة بالقليل الذى قاساه منهما فى سبيل أمته بل وللمبالغة فى المقدار الذى عاناه ، وإن الثوريين فى الجماعات الأشد مراساً ليأنفون من اعتبار متاعب زغلول هذه مشاقا على الإطلاق . لقد كان أقل شجاعة وحكمة سياسية بل حتى أقل مقدرة على التفاهم من « دى فالير » المناهض المعاصر لإنجلترا .

كان زغلول أول ناظر للمعارف فى مصر اختاره لورد كرومر وقال عنه فى خطبة له قبيل مغادرته مصر « إن لم أخطىء فسيكون لزغلول بك ناظر المعارف الحالى مستقبل عظيم النفع للشعب ففيه جميع الصفات الضرورية لخدمة بلده أمين قدير له من الشجاعة مايتفق ومعتقداته » ولكن كانت كفاءاته على الرغم من ذلك كفاءات هدم أكثر منها كفاءات بناء ، وسرعان ما اتجه إلى المعارضة يبشر بتعاليم الاستقلال التام لمصر سنوات عديدة ، ومع ذلك لم يكن هو مؤسس الوفد كما عرف بهذا الاسم حزبه من بعد ، بل كان الوفد من عمل الآخرين ، عمل أناس معروفين مثل محمد محمود باشا ، وإنما وافق زغلول على الانضمام اليه فقط بعد أن رفضت وزارة الخارجية ترشيحه للوزارة .

أما تسابق الحوادث التى أدت إلى ذلك الانفجار فكانت باختصار كالآتى :

زار زغلول المعتمد البريطانى سير « ريجنالد وينجت » بعيد الهدنة على رأس وفد معه وجعل يطالب — مدعياً الكلام باسم الشعب المصرى — بالاستقلال التام لمصر ، فلما أخذ المعتمد البريطانى على غره أجاب بالإجابة التى لا تلزمه بشىء ، وكان زغلول فى نفس الوقت قد طلب كذلك أن يسمح له ولوفده بالسفر إلى لندن لعرض القضية المصرية على الحكومه البريطانية .

وبعد أن نظرت وزارة الخارجية البريطانية فى هذا الطلب أرسلت رأيها بالرفض رفضاً لا سبيل معه إلى الاتفاق . فما كان من زغلول — حينئذ — إلا أن بدأ حملته ليضم الأمة إليه للدفاع عن قضيتها . وفى نفس الوقت طلب ممثلو مصر الرسميون — رشدى رئيس الوزراء وزميله عدلى — أن يسمح لهم كذلك بالسفر إلى انجلترا لبحث مستقبل مصر وأيد المعتمد البريطانى بقوة طلبهم هذا ولكن جاءت إجابة وزارة الخارجية « أن لا جدوى وراء هذه الزيارة » لقد كانت من غير شك غلطة فاحشة . كانت غلطة من حيث الأسلوب السيء لا النية السيئة ولكن فى الشرق يعطى الأسلوب أهمية أكبر — وربما أعطيت النيات أهمية أقل — مما هى الحال فى أوربا وهذا الفرق نادراً ما يلاحظه الانجليزى العادي . إن المصرى ليقدر التهذيب أكثر مما يقدره الانجليزى فى الوقت الذى يقدر فيه المصرى العدل المجرد أقل منه ... ولكن لابد أننا قد بدونا للمصريين — فى نهاية الحرب — لا مهذبين ولا عادلين . وطبيعى أن تتدهور مقاييس التهذيب والعدل أثناء الحروب .

ارتكبت إذن وزارة الخارجية خطأين . خطأ بعدم احترامها لنصيحة الرجل المسئول والموجود فى نفس الموقف وآخر برفضها السماح لتلك الشكاوى بالتنفيس عن ذاتها . تصرفان مشكوك دائماً فى صوابهما ، وكان عذرهم يوم ذاك أن مؤتمر السلام شغل كل أفكارهم . ولكن كان هذا العذر مع ذلك هو نفس السبب فى تذمر المصريين ، فقد وعدت العرب والشعوب الأقل مدنية من المصريين بعرض قضيتهم فى باريس بينما لم يسمح لهم بذلك .

لقد ألقى هذا الموقف الذى وقفه الانجليز وقوداً جديداً فى حملة زغلول النارية ، وكذلك قدم رشدى وعدلى استقالتهما بعد أن رفض طلبهما .

واستدعى حينئذ السير ريجنالد وينجت ليشرح الموقف بنفسه فراح يلح دون فائدة بضرورة السماح للوزراء المصريين ولزغلول بالمجيء . فلما قرب شهر فبراير سنة ١٩١٩ أن ينتهى ، دعا وزير الخارجية مستر بلفور رشدى وعدلى لزيارة لندن ولكن جاء ذلك بعد الأوان حين جاوزت حملة زغلول كل حد بحيث أصبح واضحاً للوزيرين أن أى اتفاق يصلون إليه فى لندن سيرفض فى مصر ما لم يوافق آراء زغلول ، ولذلك رفضا أن يذهبا إلا أن يسمح لوفد زغلول بالسفر هو الآخر ، وهذا ما لم تكن لتقره وزارة الخارجية .

والآن لم يكن الانفجار ليتأخر فقد بلغ الهياج الذى أثاره زغلول حد التهديد بخلق الاضطرابات والأخطار للبريطانيين والأجانب الآخرين بمصر ولم تجد السلطات الحربية سبيلا إلا أن تنذره ليكف عن نشاطه فى الحال . ولما رفض الخضوع قبض عليه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ كما قبض على ثلاثة من زملائه ونفى الجميع إلى مالطه . وما هو إلا أن اشتعلت مصر كلها بالثورة فى بضعة أيام . كان مظهرها الأول هجوما غير منظم على المواصلات فى كل أنحاء البلاد ، فقطعت خطوط السكك الحديدية وأحرقت المحطات وقطعت أسلاك البرق والتليفون وسرعان ما عزلت القاهرة عن بقية البلاد . لم يكن عدد الضحايا من الأوربيين كبيراً . وإن قتل ثمانية من الانجليز فى ظروف بالغة الوحشية بينما كانوا مسافرين بالقطار من الاقصر إلى القاهرة ، ولقد أعلنت يومها قصة هذه المأساة المحزنة ، أما قصة هانم عارف ـ وهى ساقطة من ملوى ـ فلم تُعرف كما ينبغى وربما لانخرج بذكرها هنا عن الموضوع . لما وصل القطار ملوى وكانت جثث القتلى من الانجليز مكومة فى إحدى العربات قابلته فى المحطة جماهير فقدت رشدها وراحت تجر خارج العربة جثة رجل منها كانت لاتزال

به نسمة من الحياة مبالغة فى التمثيل به . ولم يتحرك الشعور الإنسانى فى واحد من هذا الجمهور المؤلف من ألفى شخص من جميع الطبقات إلا فى قلب هانم عارف إذ أبكاها المنظر فحاولت أن تحمى بنفسها جثة الرجل لكنها ضُربت ونُحيت .

وأثر عملها الرحيم هذا فى نفوس الجالية البريطانية أعمق الأثر ففتحوا قائمة اكتتاب لها وفكروا أول الأمر فى إعطائها قطعة أرض إلا أنها احتفظت بميزات طبقتها إذ فضلت الحلى واختارت سوارين غليظين من الذهب وخاتما مهر باسمها ثم أعطوها سواراً ثالثاً عليه كتابة مناسبة وما بقى من الاكتتاب أخذته نقداً . وكان ما كتب على السوار كما يأتى :

إلى هانم عارف

هدية الاعتراف لجميل عطفها على جندى بريطانى يحتضر فى ١٨ مارس سنة ١٩١٩

إن الله يثيب فاعل الخير

كان الجنرال « بالفن » قائد الجيش فى غياب أللنبى وهو رجل رابط الجأش إلى درجة خارقة وجندى متزن العقل وكان فى الحق رجل الموقف فما رأى ذلك حتى ألف فرقاً سيارة راحت تجوب البلاد لإعادة النظام ولم ينقض أكثر بقليل من أسبوع حتى كان زمام الموقف فى يديه . وأسرعت الحكومة البريطانية فى نفس الوقت بتعيين أللنبى معتمداً بريطانياً لها كما ذكرنا من قبل ثم أمدته بتعليمات منها « أن يستخدم أقصى سلطته فى جميع المسائل الحربية والمدنية وأن يتخذ كل الاجراءات اللازمة والملائمة لاعادة القانون والنظام وأن يدير كافة الشئون بما تتطلبه ضرورة استمرار الحماية البريطانية على مصر على أساس وطيد مشروع » .

كان اللنبي رابع أربعة من الجند مثلوا انجلترا فى مصر . فأما السير «هنرى مكماهون» وكان زميلا لأللنبي فى هيلبرى وفى الكلية الملكية الحديثة — فقد خدم فى الجيش بضعة سنين فقط قبل أن يلتحق بالسلك السياسى . وأما الثلاثة الآخرين — كتشنر وونجت واللنبي نفسه فقد كانوا جنوداً عاملين وقتما عينوا .

وصل اللنبي القاهرة فى ٢٥ مارس سنة١٩١٩ فوجد الأمور يطرد تحسنها فى قبضة «بالفن» القوية وراح يستعرض الموقف ويأخذ رأى مستشاريه من البريطانيين والمصريين ولم يأت مساء اليوم التالى لوصوله حتى قام يخطب فى جماعة من الأعيان وجهت اليهم الدعوة للحضور فى دار المعتمد البريطانى .

« لقد عينني جلالة الملك معتمداً له فى مصر ورغبتى وواجبي أن أساعد على إقرار السلام والهدوء وإرضاء المصريين .

أما نواياى فهى :

أولا : وضع حد للاضطرابات الراهنة .

ثانيا : القيام بتحقيق دقيق لكل المسائل التى سببت غضب البلاد .

ثالثا : إزالة أسباب الشكوى متى ثبت صدقها .

« إنكم أنتم من يستطيع توجيه الشعب المصرى وواجبكم أن تعملوا معى لمصلحة بلادكم . لا يمكننى أن أعتقد بأن واحداً لن يساعدنى فى كل سبيل أسلكه ، بل إنى على استعدادٍ أن أعتمد عليكم للبدء بالعمل توا وكل قصدى أن تهدأ العواطف الثائرة التى جمحت الآن وبعد أن يعود الهدوء أوقن بانكم ستثقون بى لتحقيق جميع الشكاوى بنزاهة . وسوف أتقدم بالاقتراحات المطلوبة لرضا المصريين وخيرهم » .

لم يتحول اللنبي عن خطته هذه أبداً . ولكن حدث فى نفس الوقت

تقريباً — بينما كان يعمل هو على سكب الزيت فوق الماء الفائر — أن نشرت في القاهرة خطبة اللورد كرزون في ٢٤ مارس فأثارت بنشرها حنق المصريين العظيم . فقد وصف كرزون الاضطرابات في مصر بأنها «حوادث سطو أكثر منها حركة سياسية» ثم قال «إن الشيء الوحيد الذي يغتبط له هو تصرف كثير من الموظفين المصريين» . وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن أضرب هؤلاء الموظفون ليظهروا بإضرابهم أنهم لا يقادون من حيث ظنهم كرزون .

وأبرق أللنبي في ٣١ مارس — ولما يمض عليه أسبوع — إلى الوطن ينصح بإطلاق سراح زغلول وزملائه والسماح لهم بالسفر إلى أوربا ، فكانت هذه التوصية منه صدمة للحكومة البريطانية . لقد أرسلوا رجلا قوياً ليخضع لهم شعبا عاصيا فكان أول اقتراح قدمه لهم تساهلا سبق أن رفضوه مرتين . وراحت وزارة الخارجية تستشير وينجت — الذي سبق أن أشار عليهم بهذا السماح — عاد الآن يلح في تذكيرهم بأن أي تساهل في الظروف الراهنة سيعد ضعفا منهم لا يليق .

ولكن كان من الصعب على الحكومة البريطانية أن تتغاضى عن نصيحة الرجل الذي أعطته منذ قليل كل السلطات التامة لمعالجة الموقف . فوافقت على اقتراحه على مضض منها . وأعلن أللنبي في ٧ إبريل الإفراج عن زغلول وزملائه الثلاثة والسماح لهم بالتوجه أينما يريدون . ولقد قُدر لثلاثة من هؤلاء الأربعة وهم اسماعيل صدقي ومحمد محمود وزغلول نفسه أن يغدوا رؤساء وزارة في مصر أما الرابع وهو حمد الباسل فكان كمّا زائداً وهو زعيم بدوي قليل التعليم . ولقد هوجم — يومئذ وفيما بعد — هذا التصرف الحكيم الذي قام به أللنبي هجوما قاسيا حتى إن متكلما باسم وزارة الخارجية ختم موجزاً

معاصراً للحوادث بهذه الكلمات « وعلى ذلك فقد حقق أسبوعان من العنف ما لم تحققه أربعة شهور من الإقناع ولن ينسى قط مغزى هذا الدرس لا فى مصر ولا فى أى مكان آخر من الشرق » وكتب بريطانى مقيم بمصر وله بها معرفة طويلة « إن إعلان ٧ إبريل كان له وقع القنبلة علينا فمن حيث توقير مركز بريطانيا وسلامته يعتبر عمل أللنبي هذا إحدى المصائب إذ بات على من كانوا قبل ذلك مستعدين للوقوف بجانبنا أن يذهبوا إلى الجانب الآخر حماية لأنفسهم » وقال لورد لويد فى كتابه «مصر منذ كرومر» وقد نشر بعد ذلك الوقت بزهاء أربعة عشر عاما .

« إن من الصعب تبرير هذا الاستسلام لعامل الفوضى . فمهما بدا قرار نفى الزعماء وعدم السماح لهم بالسفر غير حكيم أو بدا ظالماً فإن نقض هذا القرار وفى مثل تلك اللحظة كان له من المؤكد تفسير واحد وتفسير واحد فقط : هو أن القوة نجحت حيث فشلت الطرق الدستورية » ولكن على الرغم من ذلك قليل ممن درسوا تاريخ مصر قبل الأزمة وبعدها من يخطّىء أللنبي أو من يظن أنه كان ممكنا — باستعمال وسيلة أشد عنفا — أن يغير الرأى المصرى أو يغير مجرى الحوادث التى وقعت فيما بعد . إن كلام لورد لويد يتضمن أنه لو أطلقت يد جنرال « بالفن » للسير باجراءاته إلى نهايتها لتغيرت بذلك الحال ولكن جنرال «بالفن» نفسه كان من الذين نصحوا ببعض التساهل لوجهة النظر المصرية وكان ذلك منه قبل وصول أللنبي وبعد وصوله على السواء ، وكذلك كان كلايتون[1] وهو من يعرف مصر جيدا ومن لا يمكن إتهامه بضعف تصميمه كما لا يمكن اتهام «بالفن» وأما افتراض أن أللنبي إنما تصرف مدفوعا

(١) سير جلبرت كلايتون مستشار الداخلية مات وهو يلعب البولو أثناء توليه منصب المندوب السامي فى العراق ، مات فى سبتمبر سنة ١٩٢٩

بقلة حزمه فافتراض ينفيه تاريخ حياته كما تنفيه أخلاقه .

ويمكن أن نجد مفتاح عمله فى تلك المرحلة من تعليق له صرح به لأحد ضباطه وكان قد جاءه بتقرير يشير فيه أحد مرءوسيه باستمرار إلى «الصعوبات المحيطة بموقفى » قال أللنبى « ما الذى يعنيه هذا الرجل بتلك الصعوبات المحيطة بموقفه ؛ أنا ما وجدتنى أبدا فى موقف صعب طول حياتى . لقد وُجدت أحيانا فى موقف مستحيل وعندئذ كنت أتخلص منه بأسرع ما أستطيع » ن هـذه الإشارة لتلق لنا ضوءاً يكشف أمامنا خلق أللنبى كله : أنها ترى قوة رجل أعـــد لمواجهة أى موقف ولإنكار كل صعوبة تعترض مجرى عمل يعتبره صوابا ومع هذا كانت له البصيرة التى يعرف بهـا العمل المستحيل والشجاعة والأمانة اللتان تجعلانه يعترف بذلك . فسرعان ما أدرك أنه — ولو أن الثورة المصرية قد نفخ المهيجون فيها إلى درجة الغليان — الا أن قوة الغليان هذه التى فاقت الحد كانت التعبير الذاتى لغضب أمة له أسبابه . فما كان أيسر عليه — بما فى يديه من قوة — أن يتخذ من الإجراءات الصارمة ما يقمع به وينتقم لـكنه بذلك لم يكن إلا ليزيد فى صعوبة الوصول إلى التفاهم الودى مع الشعب المصرى ذلك التفاهم الذى بدونه يصبح مركزنا فى مصر مستحيلا . ولقد كان على علم بأن عمله هذا سيرمى بالضعف فى معظم الدوائر ولـكن كان له من القوة والحـكمة ما يكفيه للقيام بعمله . وكبقية القرارات التى أتخذها فى حياته — عظمت أو صغرت — لم ينظر وراءه قط لتبريره أو للدفاع عنه .

وبعثت النتيجة المباشرة لذلك على التفاؤل إذ انقلبت مظاهرات الفوضى إلى مظاهرات إبتهاج وعاد رشدى إلى رئاسة الوزارة إلا ن عناصر الشر — التى حلت الثورة عقالها — ظلت تستوجب القضاء عليها فكان لا يزال يقع كثير من الحوادث البشعة — كقتل الجنود البريطانيين والمدنيين من الأرمن

واليونان — فى المدن وفى الأقاليم على السواء . وكان لا يزال من الاضطراب كثير مما يستلزم القمع بيد قوية . فى الوقت الذى قام المتطرفون فيه بمجهود آخر لاستعادة السيطرة بالقيام بحملة تهديدية ضد موظفى الحكومة حتى نجحوا فى الوصول إلى تنحى رشدى باشا ثانية عن رئاسة الوزارة فى ٢١ إبريل . فرأى اللنبي أن يوقف التهديد باعلان صارم أصدره فى ٢٢ إبريل ثم ألف الوزارة محمد سعيد باشا — وهو تركى من المدرسة القديمة قوى ولكن لا يبالى — بعد ذلك بشهر لتسيير دفة الحكومة المصرية . ثم أعقبت ذلك فترة هدوء نسبى .

وسنختم هذا الوصف للمتاعب المصرية بهذه النادرة اللطيفة وهى حديث دار بين لورد أللنبي وبين أحد جنرالاته فى مؤتمر عقد بابريل عندما كانت تدرس الإجراءات لتخفيف العقوبات والرقابة .

أللنبي : سمعت أنك تفرض غرامات قاسية على القرى فى منطقتك .

الجنرال : نعم ياسيدى إذا سلكت قرية مسلكا معيبا غرمتها بمقدار ١٠٪ من ضريبة الخفر المستحقة عليها .

أللنبي : ذلك غير ما سمعت إذ أخبرت أنك تفرض عليهم غرامة تعادل عشرة أمثال ضريبة الخفر .

الجنرال : نعم هذا حق ياسيدى . عشرة فى المائة .

نبى : ولكن ليس هذا ١٠٪ هذا ١٠٠٠٪ فى المائة .

الجنرال : أوه . أهو ذاك (ثم يتوقف وتلى ذلك فتره سكوت) . حسنا عندما أقول لهم ١٠٪ يعرفون ما يجب عليهم أن يدفعوه ثم يدفعونه بالتمام ياسيدى .

أبو الهول واللغز

مصر مايو ١٩١٩ — ديسمبر ١٩٢١

إن شخصية بمفردها فعلت الكثير لتعيد سمعة الانجليزى وكلمته
الى القمة التى بلغاها قبل الحرب — من مقال بالتيمس
عن لورد أللنبي . يوليه سنة ١٩٢٥

الصلح — المسالمة

أتم أللنبي مهمته وهى إعادة النظام والقانون إلى مصر ، وسواء رجع ذلك إلى التصفية الحكيمة كما ظن مؤيدوه أو عاد إلى التسليم الأحمق كما ادعى ناقدوه فالواقع أنه أتم ذلك بأسرع ما كان فى الإمكان ومن غير أن يثير الألم فى نفس شعب كانت كراهيته ظاهرة . ولقد وقعت من وقت لآخر بعض الاضطرابات فى السنوات الست التى قضاها فى منصب المعتمد البريطانى وأتهم مرات أخرى بالضعف وبالتردد فى معالجتها ولكنه نجح فى مايو سنة ١٩١٩ فى تحقيق فترة من الهدوء النسبى يُمكن معها تقدير الجزء الثانى من مهمته وهو « استمرار الحماية على أساس وطيد مشروع » .

لم يحتج أللنبي وقتاً طويلا ليفهم أن الحماية علاقة مستحيلة بين بريطانيا ومصر ، ولكن حكومة جلالة الملك لزمها ثلاث سنوات حتى وصلت إلى هذه النتيجة . ولزمها أربع عشرة سنة أخرى لتحقق بمعاهدة ما كان يرجى أن تكون قاعدة وطيدة مشروعة للتفاهم بين البلدين ولو بمحنة حرب جديدة ، ولقد كانت الخطوة التى خطاها أللنبي فى أوائل سنة ١٩٢٢ أول خطوة حاسمة فى طريق هذا التفاهم .

ولكى نقدر الخدمات التى قام بها أللنبى فى مصر ونتتبع تعقيدات المشكلة التى حيرت الدبلوماسية والحكومة يجب أن نقدم صورة واضحة للأشخاص والحوادث وللموقف فأولا : قليل من مراقبى البريطانيين — حتى من الذين وكل اليهم أمر إدارة صلاتنا بمصر — من فهم تاريخها أو نظام الحكم الذى سادها فهماً صحيحاً . فالانجليزى العادى يعلم أننا أخذناها بلداً مفلساً غير منظم مضطهداً ، وأننا بإدارتنا النزيهة الماهرة أصلحنا ماليتها وأقمنا العدالة بها وأحللنا النظام محل الفوضى ثم يعلم أننا قدناها وحكمناها منذ ذلك الحين . ولكن قليل من كان يعرف أن مصر كانت تتمتع باستقلالها الذاتى تحت الحكم التركى منذ أيام محمد على وأن هذا الاستقلال كاد أن يكون تاما إذا استثنينا الامتيازات . وإذن فلم يكن المصريون — حين طالبوا بالاستقلال يبحثون عن شىء لم يسبق لهم أن عرفوه بل كانوا يبغون بذلك استعادة حقوق اكتسبوها يوم كان الأتراك سادتهم . وإن كان صحيحاً أن تلك الحقوق إنما اكتسبها وتمتع بها حاكم أجنبي مطلق لا هذا الشعب المصرى الذى يطالب بها الآن .

لم يفهم غالبية الناس كيف كانت تدار الرقابة البريطانية لا ، ولاهم أدركوا أن القوة التنفيذية لم تكن بأيدى المستشارين البريطانيين وأن قراراتهم إنما تكتسب القوة التنفيذية عن طريق الوزراء المصريين الذين يقدم لهم هؤلاء المستشارون مشورتهم . وكان اللورد جرانفيل الوزير البريطانى المختص من وضع سنة ١٨٨٤ القاعدة التى تحتم قبول المشورة المقدمة من المستشار البريطانى الى الوزير أو الحاكم المصرى . وبهذه الوسيلة أصبح البريطانيون حكام مصر الحقيقيين . ولكن لابد من أن يفهم أن الوزراء فقط هم وحدهم من يستطيعون إصدار الأوامر وعمل القوانين وأنه بدون الوزير يستحيل أن

تحكم مصر حكما مدنيا . وقامت الحماية فلم تغير من هذه الحالة شيئاً إذ مازال المستشارون البريطانيون عاجزين تماماً عن القيام بأى عمل طالما لم توجد الوزارة التى يقدمون لها مشورتهم فاذا لم توجد هذه الوزارة يصبح محتما أن تحكم البلد بالاحكام العرفية وهذه فى الواقع طريقة من طرق الحكم السيئة وبالاخص فى أوقات السلم ثم هى بعد ذلك تناقض تماما تقاليد البريطانيين . وعلى هذا يجب أن يكون هم ألنبي الأول أو أى معتمد بريطانى سواه أن يوجد الوزارة التى تستطيع القيام بأعباء الدولة .

ويمكن الحديث عن ألنبي الادارى فى مصر لكنه فى الحقيقة لم يهتم بالإدارة قدر ماهتم « بإيجاد وزارة » . وكان عليه فى بعض الأحيان أن يقنع سياسياً مرتاباً جذعاً يكره العمل بواجبه فى قبول العبء رغم رفض دوننج ستريت وضجيج الأزهر وهذا عمل لم يكن لألنبي رغبة فيه ولا له مران عليه . ولكن على الرغم من ذلك فقد بلغ به إخلاصه وحسن تقديره — وهى صفات طبيعية فيه — وصبره واحتماله — ويتحققهما فيه من عرفوه تماما — مبلغاً من النجاح عز على أى دبلوماسى محنك .

ولقد ظل ألنبي — فى محيط السياسة المصرية المضطرب — الشخص الوحيد الصلب الثابت المستقيم دائما المخلص لكلمته أبدا الذى كانت نعم عنده هى نعم ولا عنده هى لا . والذى كان على استعداد أن ينصح فى عطف وأن يصغى فى محبة ، والذى ما تدخل فى الشئون الداخلية لمصر الا قلما استطاع والذى عندما فعل ذلك لم يدع للشك مجالا فى أنه خليق بأن يطاع .

وكان فى مصر — إلى وزراء ذلك الزمان — شخصيتان يحسب دائما لهما كل حساب . أولهما شخصية زغلول بطل الاستقلال ومعبود الشعب ومن كان وعناده وغيرته تنمو مع الهتاف باسمه حتى ليجعله ذلك أقل إصغاء لداعى

العقل ، والثانية شخصية السلطان — وفيما بعد الملك — وهذه تخالف تلك كل الاختلاف فهو فطن أكثر مما هو قوى وسياسى أكثر منه متجبرا وقد كان فى مقدوره أن يلعب دور الأوتقراطى ولكن لم تتوفر له القوة التى تجعله ديكتاتورا . أما مقدرته وأثره فليس من سبيل إلى انكارهما . وكانت علاقاته باللنبي — فى العادة — حسنة فقد أحب كل منهما الآخر .

وكانت هناك شخصية ثالثة أكثر تحييرا للعقول ولذلك تطلبت من العناية نصيبا أكبر هى الجماهير المصرية . فمصر بلد لا يستطيع الإنسان — ملكا كان أو وزيرا — أن يعتمد فيه طويلا على رأيه العام إذ هو مفاجىء سريع التغير فى حماسه وفى غضبه وإن بلدا ترتفع فيه نسبة الأميين يكون أثر الصحافة فيه ضعيفا إلى حد ما ونادرا ما يكون معتدلا . وتصبح الخطب فى المساجد والهمسات فى القهاوى والإشاعات فى الأسواق الوسائل التى تنتشر بها المعتقدات الشعبية وتثار بها العواطف . ولقد كانت الجماهير المصرية خطيرة فى ثورانها الذى تفاجىء به وفى عنف تطرفها لكنها احتاجت فى العادة إلى قليل من القوة لاخمادها بشرط أن تستعمل بسرعة وبحزم .

ولقد استغل الزعماء الشعبيون — وخاصة زغلول — جماعة الطلبة كسلاح سياسى فبات من السهل تهييجهم بقليل من الخطب الملتهبة وبالطبع ألقى هؤلاء مظاهرات الشوارع أكثر تسلية من ذلك الروتين التعليمى الثقيل وأضحت الاضرابات المدرسية أمرا مألوفا تبعث عليه أتفه المناسبات فيكفى أن يلقى فى لندن أحد الوزراء البريطانيين خطبة لا ترضى التلاميذ حتى يترك هؤلاء مقاعدهم مندفعين إلى الطرقات فى مظاهرات ذات ضوضاء وعجيج وأصبحت مناسبات بعض الحوادث من سنة ١٩١٨ إلى سنوات عدة «الحجة» التى يهملون بها واجباتهم ويفضلون بموجبها الفوضى وبات التعليم والطاعة غير

معروفين لنسبة كبيرة من التلاميذ المصريين .

وثمة تيار آخر فى مصر لم يتأثر به أللنبي ولو أنه كان خليقا أن يزعج من هو أقل منه إهمالا للنقد هو جزء كبير من الجالية البريطانية موظفين وغير موظفين ومقيمين ومهاجرين . كانوا يتهمون أللنبى — بوجه عام — بقلة الحزم فى معاملة المصريين ويقولون : « لقد كانت الأمور تسير فى الأيام الماضية سيرا حسنا حين لم يكن قد وُجد هذا الكلام فى الاستقلال وحين كان المصريون يقومون بما يطلب منهم ويومئذ لم يتطلب الأمر سوى قليل من العزم » . « ولو أعطى المصريون درسا قاسيا لنكصوا على أعقابهم » أو « لم يكن يحدث هذا فى عهد كرومر » وتلك كانت كلمات أولئك النـاس . لم يلتفت أللنبي لتلك الهمهمة الاستعمارية يتشدق بها سائح كسلان أو لتلك الشكايات يرددها موظف ناقم بل جعل ينصت باهتمام لمن كانت لهم معرفة حقة وفهم صحيح للبلاد .

وهكذا كانت الحال أمام أللنبى وكان الخط التليفونى بين لندن والقاهرة فى إحدى طرفيه القاهرة وفى الطرف الآخر شخصيات دوننج ستريت والعوامل المكيفة لسياسة الامبراطورية البريطانية فى الداخل وفى الخارج .

كان لورد كرزون وزير الخارجيـة ولو أن الخبرة والسرعة فى البت والكفاءة والمعرفة كانت وحدها الصفات المطلوبة لما وجدت إدارة الخارجية البريطانية من هو خير منه فهو صائب الحكم — عادة — على الأشياء ، ولكن لأنه فقد قوة الشخصية والعزم الذى يؤيد به وجهة نظره فى و.. .تنزعه ضاع جانب كبير من عمله . وكانت السياسـة البريطانية — فى السنوات التى تلت الحرب — عديمة الثبات والاستقرار كما كانت باهتة الأثر ، ولقد وهب كرزون القدرة على معرفة الأخطاء التى سترتـكب ولـكنه — على الرغم من عدم إقراره لها — كان يتقهقر فى وجهها فترتـكب وكانت أمور الوطن تستغرق

الجزء الكبير من وقت الحكومة حتى لم تكن السياسة الخارجية تلقى سوى اليسير من العناية وذلك فى الوقت الذى بدا فيه على ثورة إرلندا أنها ستستمر طول الأبد بل ربما ستزداد سوءاً إلى تكرر حوادث الإضراب من العمال علاوة على ما كان لديهم من الارتباكات الخارجية المعقدة بخلاف المسألة المصرية . ثم كانت حالة الشعب البريطانى نفسه بحيث جعلت من العسير انتهاج سياسة قوية فى الخارج فلقد أنهك القوم هناك التعب من جراء تلك المغامرات الخارجية وتلك الارتباكات التى كلفتهم كثيراً حتى لقد اشتدت رغبتهم فى العودة الى الحالة الطبيعيه بأسرع ما يستطيعون فلأول مرة فى حياتها حاربت الأمة كأمة وما أرادت ذلك بل كانت تطمع فى العودة سريعاً إلى عملها التقليدى، الى تجارتها . ولما سئل السير هنرى ويلسون رئيس أركان حرب الامبراطورية عما يوصى به لتوزيع القوات البريطانية العديدة فى الخارج لم يمل من تكرير نصيحته بأن « أخرج من الأماكن التى ليست لك وابق فيما هولك» وربما لوحظ أن أرلندا ومصر تدخل فى هذه الأخيرة .

هـذه الصورة السابقة للكيفية التى عولجت بها المشكلة المصرية ناقصة بالضرورة إذ أغفلت هى الكثير بينما يمكن معارضة البعض من تقديراتها . وتلك هى خطوطها البارزة فيها . فمصر وفيها شعب جاهل أمى فى أغلبه — يقوده ديماجوجى عنيد — وهذا الشعب يطالب بالاستقلال فى غير فهم لما يمكن أن يجره من مسئوليات بينما اتبع المصريون الأكثر اعتدالا — هربا من المسئولية — إملاء الجماهير بدل أن يقودوهم — وانجلترا وفيها حكومة ائتلافية من أعضاء غير متوافقين يقودهم رئيس يجهل عن الشعوب الأجنبية والمسائل الخارجية الشيء الكثير ، فتقاسمته بذلك مجموعة من المشاكل العويصة داخلية وخارجية، أعطيت من بينها مشكلة مصر أهمية ضئيلة نسبيا ، ولكن بالتأكيد

لم يكن لها فى نظر مجموع الأمة أهمية ما ، وبين كل هؤلاء وقف أللنبي . أللنبي الجندى الذى ألف استلام الأوامر المحددة وتنفيذها بالدقة . أما الآن فقد وجد — بدل الأوامر المحددة — سياسة غامضة لا يسهل دائما تفسيرها ويستعصى أحيانا تنفيذها .

وبدلا من أن يصبح قادراً على القيادة أو يدان له بالطاعة اضطر إلى الإقناع كما اضطر إلى التوفيق ، ولقد كانت لديه القوة ليستعملها كعلاج أخير وكان عنده ما يغريه باستعمالها لكنه أدرك أن القوة ليست هى أبداً الوسيلة التى تحل بها مشكلة العلاقات بين انجلترا ومصر .

إن من تكلموا — يومئذ أو بعد ذلك — عن سياسة أللنبي كثيرون . ولكن لم يكن لأللنبي وما كان ليكون — سياسة خاصة . لقد كلف بتنفيذ سياسة الحكومة البريطانية وهذا ما أداه — على قدر ما استطاع أن يفسر تلك السياسة — بولائه المعروف . ولكنه أقام لنفسه من جماع ثروته العقلية بضعة مبادىء سيّر على هواها الأمور اليومية بمصر .

فمبدأه الأول . لو أن سياستنا المعترف بها الخاصة بتدريب المصريين على حكم أنفسهم — كانت سياسة صادقة أو كانت تعنى فى الحقيقة شيئا لبات من العبث التدخل وأخذ أزمة الأمور لمجرد قيام صعوبة ما ، ولو كان للوزراء والموظفين أن يتعلموا الحكم ، وكان للبوليس أن يصير قادرا على حفظ النظام وكان للجيش المصرى أن يغدو فى مكنته معاونته عند الحاجة لوجب إذن أن يتعلموا مواجهة مصاعبهم وأخطارهم بأنفسهم — ولوجب ألا يعتمدوا على البريطانيين حين يقع ما يخل بالنظام أو ما يثير الفزع . وهذه الفقرات المقتطفة من رسائل اللنبي لأمه — وكان يكتب اليها من مصر مرة كل أسبوع أو كل عشرة أيام حتى توفيت سنة ١٩٢٢ — تدل على مراعاته لهذه القاعدة

« ٦ أبريل سنة ١٩٢١ — وصل القاهرة أمس سعد زغلول — فسحبت كل الضباط والجنود من الشوارع تاركا للمصريين الأمر — ولقد احتشدت الجماهير المتحمسة ولكن كان النظام يشملها حتى لم تقع حادثة واحدة » .

وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ — بعد حدوث بعض الاضطرابات

« انتظر أحسن الفرص إذ أرجو أن يقوم المصريون بسياسة أنفسهم ولست أبغى التدخل إلا أن تعرضت حياة الأوربيين أو مصالحهم للخطر »

ولقد كانت لهذه القاعده — بالنسبة لانفجارات الجماهير المصرية خاصة — أخطارها الواضحة فقد انتقد أللنبى فى مناسبات عدة وعلى الأخص بعد ماوقع فى الإسكندرية من حوادث الشغب التى سببت فقد حياة الكثيرين بأنه لم يسبق بحمل التبعة قبل ذلك بوقت كاف ، إلا أن قاعدته هذه كانت سليمة ولو أنها تستلزم رجلا شجاعا ليواجه مايمكن أن تبعثه من أخطار .

وكان مبدأه الثانى : عدم المساومة أبدا فى المسائل السياسية . وفى ذلك كان حكيما أيضا . فالمساومة تلازم الأضعف بينما العزم الكريم شأن الأقوى ولما بات من الضرورى أو من المستحسن أن يتساهل مع المصريين بعض التساهل كان رأيه أن يتم ذلك فى الحال وبحرية ودون محاولة للظفر بمزية فى مقابل ذلك . وكانت عقيدته هـذه أساس العمل الذى حصل به على تصريح سنة ١٩٢٢ .

وكان مبدأه الثالث : اعتقاد راسخ فيه بأن مركزنا فى مصر إنما يعتمد تماماً على قوتنا البحرية فى البحر الابيض . فطالما احتفظنا بها وسعنا إعطاء المصريين كل المنح المعقولة إذ يصبح فى أيدينا السيادة على مصر ما دامت لنا السيادة على البحر الأبيض . فاذا فقدنا هذه السيادة أصبحت الحقوق التى يطالب المصريون بها عديمة الجدوى .

وأعظم ثناء وجه لأللنبي على حسن صنيعه ما سجله رجل وافر العلم بمصر والمصريين — هارى بويل — من أكثر من وثق بهم كرومر من معاونيه — وقد جاء الى مصر فى ربيع سنة ١٩٢٢ لتمضية إجازته فى الظاهر ، ومبعوثا من وزارة الخارجية — من غير شك — ليكتب لها تقريرا غير رسمى عما كان يصلها من نقد كثير لأللنبي . ولو أنه أرسل ليلعن إلا أنه بقى ليبارك كما تدل على ذلك المقتطفات الآتية من يومياته :

« كان لى حظ الاطلاع على جانب كبير من جوانب أللنبي . الرجل الذى أعجبت به كثيرا . إن مركزه فى مصر لمن أصعب المراكز إذ ينطوى على الكثير من المسائل التى لم يسبق له كجندى أن يعالجها . ولقد وافقت مدة خدمته أنشط فترة فى تاريخ الحركة الزغلولية ولكن على الرغم من ذلك فقد تصرف بنجاح غير مألوف ولست أتردد فى القول بأن جانبا كبيرا من نجاحه إنما يعود إلى مافيه من مشابهة للورد كرومر سواء فى جسمه أو فى خلقه .

« إن أللنبي هو وحده الشيء الطيب الفريد الذى أستطيع العثور عليه فى هذا الأفق » .

« يزداد حبي لأللنبي يوما عن يوم فهو زميل لطيف وخير من يصلح للظروف الراهنة . كم تمتلأنى غضبا هذه المؤامرات التى تدبر له هنا وفى لندن » .

ولقد وجد أللنبي مرءوسوه الدبلوماسيون كما تمنوه أن يكون وسرعان ما أحبوه وأعجبوا به ، ولئن كانوا قد توقعوه جنديا خشنا جافيا لا حظ له من العلم بالأدب ولا مهارة عنده فى قول أو فى كتابة فلقد أدركوا خطأهم أسرع مما ظنوا . فكتب أحدهم عنه يقول « لقد كتب أمس مذكرة مختصرة اطلعت عليها ممن أعمل معهم » ودهش واحد آخر — وكان يقدم لأللنبي مسودة

رسالة فيها إستشهاد مترجم لأحد كبار المسرحين القدامى من اليونان — حين سمع أللنبي يقول عند قراءتها ، إن أردنا الاستشهاد بأسكيلوس فليكن ذلك باليونانية القديمة نفسها ، ثم تلا أللنبى النص اليونانى .

ولقد ألهب أللنبي كل رجاله — فى وقت من الأوقات — بسوط غضبه وبقسوة لسانه . لكنهم عرفوا جميعا قصر هذه النوبات ومضيها من غير أن تترك وراءها أثرا أو ذكرى . ولقد قدروا فيه جميعا سرعته فى فهم الضرورى من المشاكل كما قدروا فيه قوة تصميمه وولاءه التام لمن خدموه ويدل على ذلك أنه أمر بتسجيل كل نصيحة خاصة قدمها مرءوس فى الدفاتر الرسمية ثم لم تنفذ ذلك إن ثبت بعدئذ صوابه . ومن ناحية أخرى عرف أللنبي بسرعة كيف يقدر صفات مرءوسيه حتى لم يكن ينظر إليهم أو يخاطبهم كما لو كان يخاطب ، جماعة من الضعفاء ذوى المعاطف السوداء ، أى جماعة من الكتبة الخانعين . ولم يعمل أبدا موظفو دار المعتمد كفريق ، لا بولاء أشد ولا بانسجام أتم مما عملوا تحت قيادة أللنبى .

ودار المعتمد فى مصر — حيث أمضى أللنبي أكثر من ست سنوات — بناء على ضفة النيل بديع ، تمتد حوله حديقة جميلة تبلغ النهر العظيم إذ تسمح مياهه وطميه بالنمو لجميع النباتات ، وكثيرا ما أنفق أللنبي فى هذه الحديقة من وقته الجزء الكبير بل كان يسعده أن يريها للزائرين وكان يسرهم منه ذلك لو لم يخالط سرورهم خوف — هم على حق فيه — من بجعة كبيرة اعتادت أن تتبع أللنبي أينما يسير وتغار عليه ممن تراه بصحبته من الأطفال والنساء ، وقد حدث لهذه البجعة نفسها أن روعها مرة أسدان هاربان — جيء بهما إلى أللنبي ليراهما قبل أن يرسلا إلى حديقة الحيوان — حين طفقا يطاردانها فى أرجاء الحديقة ولم تبعد حديقة الحيوان هذه إذ كانت على ضفة النيل الأخرى فجعل أللنبي

يكثر من زيارتها لما يجده فى ذلك من متعة ولما كان يحصل عليه من زيادة فى معلوماته السابقة عن الحيوانات والطير . وكان يشمل بحبه الحيوانات كلها إلا الكلاب فما أحبها وما اقتناها . لم يتظاهر أللنبي بمركزه أبداً بل كان يسير فى القاهرة دون حرس ودون احتفال . اللهم إلا ياوره . حتى أواخر أيامه حين أمر رسميا ألا يخرج إلا وفى وصحبته الحراس .

وما زال أللنبي يمتطى الخيل وإن كان أقل من عادته اذ اقتطعت واجباته الرسمية كثيراً من وقته . وفى الشتاء كان يصيد البط الذى يزور الدلتا المصرية فى أفواج هائلة ، وفى الصيف عند ما تنتقل الحكومة إلى الاسكندرية كان يستحم بانتظام حتى كاد مرة — فى يولية ١٩٢٠ — أن يفقد حياته فى البحر . كان اليوم عصيبا وقد توغل أللنبي — وهو السباح القدير — داخل البحر . فلما أراد الرجوع أحس بصعوبة عظمى فجعل يغالب حتى انفجر أحد شرايينه وبذلك أنهك قلبه ورئتيه واضطر أن يلزم بعدها الفراش أسبوعين — ولو غيره أقل منه عزيمة لكان من المحتمل أن يطويه البحر فى مياهه .

وكان يقام فى دار المعتمد كثير من حفلات الاستقبال خاصة ورسمية ، ولقد ندر أن مر بها يوم لم تقم فيه حفلة غداء أو عشاء . وكان أللنبي وزوجته مضيفين رائعين من كل الوجوه حتى إن أقوى الحفلات صبغة رسمية كان يحيطها جو من روح الصداقة والفخامة وتبين القصة التالية عطف أللنبي وظرفه كضيف فقد حدث أن أمر ضابط كبير فى فلسطين — كان على وشك القيام بزيارة لمصر — أحد مرءوسيه بأن يرسل برقية إلى القائد العام فى القاهرة . وكان صديقاً حميا له بأنه آت لتمضية الليلة معه وقال له « أخبره بأنى سأصل متاخراً ولكن لا عليه من ضجر بشأن عشائى بل حسبه أن يضع قليلا من الشمبانيا وبعض شطائر الكبد فى حجرتى » ثم أرسلت هذه البرقية خطأ إلى

دار المعتمد بدل أن ترسل إلى القائد العام ، فلما وصل الضابط إلى القاهرة دهش إذ وجد ياور المعتمد البريطانى فى انتظاره بالمحطة ويقول له إن برقيته وصلت وإن المعتمد البريطانى يأسف لتناوله العشاء فى الخارج ولكن الحجرة معدة له . ولم يضجر كل ذلك الضابط بسهولة ، إلا حين وجد الشمبانيا وشطائر الكبد فى حجرته إذ أدرك أنه فى حاجة الى شيء من الايضاح . ولما أصبح الصباح وقابل مضيفه بادره بالاعتذار عن « الغلطة الشنيعة » التى وقعت منه أمس فرد عليه أللنبي : « أى غلطة . أو ليست الشطائر من الصنف المطلوب » ثم أبى أللنبي أن يستمع منه لكلمة اعتذار أو إيضاح قائلا « إنه مسرور لرؤيته ولتمكنه من تقديم العشاء الذى تعوده ».

وكذلك كان أثر ليدى أللنبي فى دائرتها ملحوظاً كأثر أللنبي فى دائرته ، وكانت تخفى وراء تصرفها الرقيق وجاذبيتها شخصية قوية وخلقاً صارما كخلقه وكانت أقل تأثرا بالعواطف وأكثر واقعية وإدراكا من معظم النساء . وهى دقيقة المحافظة على مواعيدها لا تتعجل الأمور قط ، كما كانت تسمو على التآمر وتترفع عن القيل والقال ، جمة الهدوء والوقار لا تتغير بتغير الأحوال . كانت إمرأة عظيمة ، وكانت خير من يكمل عظمة أللنبي .

الفصل الثالث

لجنــــة ملنر

مايو سنة ١٩١٩ ديسمبر سنة ١٩٢١

الحكومة فى خير صورها شىء ناقص ، فالأفضل
أن يختار الشعب النظام الذى يعجبه ، أولى من أن
يفرض عليه نظام – وإن كان أفضل منه – لا يحبه .
لورد ملنر

اقترحت الحكومة فى أول إبريل – بعد تعيين أللنبى – إرسال لجنة تحقيق برئاسة لورد ملنر وأفهمت أللنبى أنها فعلت ذلك تكملة لاقتراحه الافراج عن زغلول وصحبه . ولكن رفض أللنبى أن يثنيه عن عزمه حتى رجل مشهور كاللورد ملنر وإن وافق على أنه ربما يكون لتلك الزيارة فائدة فى المستقبل . "

ولجنة التحقيق هذه هى الوسيلة المحببة لدى الحكومة البريطانية لحل المشاكل المعقدة سواء فى الداخل أو فى الخارج . وإن لها لمزايا واضحة . فهى تؤجل على الأقل مدة ما ضرورة الانتهاء إلى قرار غير مرغوب فيه وقد أتاحت لهم لجنة ملنر والمفاوضات التى أعقبتها فعلا فرصة للتنفس دامت أكثر من عامين وهى كذلك تقدم لعدد من الموظفين الممتازين حاليين وسابقين عملا مسليا يشغلون به وقتهم ؛ فوق ما تتركه من تقارير كثيرة جديرة غالبا بالقراءة لما تزخر به من معلومات قيمة وإحصاءات منظمة ؛ ثم هى أخيرا توحى بالأمل دائما فى أن تنجلى أعمالها عن حل عملى مقبول للمشكلة .

وكان على لجنة ملنر — لكى يعظم أثرها — أن تصل مصر فى مايو أى فى فترة الهدوء التى تلت إعادة النظام . ولكن كان ملنر — وهو عضو بالوزارة جم المشاغل متعددها ، ولم يكن من السهل العثور على أعضاء أكفاء فى مثل هذه الفترة القصيرة وخاصة وهناك قاعدة مسلم بها فى مثل هذه اللجان هى أنه كلما كانت المشكلة صعبة كلما كان ذلك أدعى إلى زيادة الاعضاء — ولم يكن الفصل الحار فى مصر أنسب الأوقات للعمل المنتج . وهكذا تأجل وصول البعثة حتى الخريف بل لقد تأجل حتى الشتاء ، وفى هذه الأثناء كان معارضو اللجنة قد تمكنوا من تنظيم معارضتها وتدعيمها .

وقام أللنبى فى نفس الوقت باجازته إلى إنجلترا ولم يكن زارها منذ أكثر من عامين ، لقد غادرها فى يونيه سنة ١٩١٧ رجلا غيرمعروف تقريبايومذاك وخائب الأمل الى حد ما ونقل بعد ذلك الى ميدان ثانوى بعد فشله فى آراس كما اعتقد الكثيرون ثم هاهو اليوم يجيئها وقد غدا رجلا ذائع الصيت وافته مظاهر التكريم من كل ناحية ، فأثنى عليه مجلسا البرلمان ، وأنعم عليه بلقب « فيكونت » وأعطى ٥٠ ألف جنيه هبة وحظى بلقب اللورد — وقد أحزنه ذلك جدا إذ جاءه الإنعام فى نفس اليوم الذى كان ابنه ميخائيل سيبلغ فيه الحادية والعشرين . ثم رقى فى صيف سنة ١٩١٩ إلى رتبة فيلد مارشال وعين فى سنة ١٩٢٠ كولونيلا فى فرقة — « حرس الحياة » نخوله ذلك حمل « العصاء الذهبية » . إلى جانب ما منحته له الدول الحليفة التى حاربت ألمانيا — الولايات المتحدة ، فرنسا ، إيطاليا ، بلجيكا ، رومانيا ، اليونان ، مصر والصين ، اليابان ، والحجاز — من أوسمتها .

وللشخص الذى ينعم عليه بأحد ألقاب التشريف — « ايرل ، فيكونت ،

بارون ، ماركيز ، أن يختار لنفسه موضعا أو مواضع يشتق منها لقبه ، فاختار أللنبي لنفسه « مجدو » حيث نال هناك أعظم نصر له ، و « فليكستو » وكانت لا تزال مسكن أمـــه . واختار للرمز الذى يلبسه « حصانا » يمثل به سلاح الفرسان الذى ينتمى إليه ويدين له — كثيرا بانتصاراته ، و« جملا » ليسجل، به الدور الذى أداه ذلك الحيوان النافع المكروه فى حملات فلسطين . ولسوف يصعب فى المستقبل على أى جنرال بريطانى أن يختار لنفسه رموزا مماثلة ، لأن الدبابة أو سيارة النقل ان يلقيا قبولا من « كلية الأسلحة » .

ولقد وهبه كثير من المؤسسات والنقابات والجمعيات التى كان من غرضها السلام ألقاب التشريف للنجاح الذى أصابه فى الحرب ، كذلك منحته عدة جامعات درجاتها كأكسفورد وكمبردج وأدنبرة وييل ، وأنعمت عليه نقابات مدينة لندن القديمة — مثل الصاغة وتجار الأسماك والبقالين — بلقب «رجل حر » ، بل لقد أطلق اسمه على جواد سباق — لم يكسب هذا الجواد فى سباق الدربي — وعينته عدة من الأندية عضوا بها مدى الحياة . ولعل أعجب تكريم ناله كان عضوية ناد من أكثر أندية الكريكت تحفظا ا . زنجارى . وكانت مبادؤه الثلاثة : إحفظ وعدك . أحفظ اتزانك . إحفظ هدفك . وقد استطاع أللنبي أن يفى بالمبدأين الأول والأخير . بل لقد اتبعهما طول حياته .

ولقد أعطى الشرف المدنى المتوج وهو « حرية مدينة لندن » الذى يعادل فى قيمته « النصر الرومانى » لخمسة من قواد الحرب هم جلليكو وبياتى وفرنش وهيج وأللنبي . وأقيم احتفال الإنعام على أللنبي فى ٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ حينما استقبل فى قاعة «الجلدهول» ثم أهديت له « الحرية » و «سيف الشرف » ودعى بعد ذلك إلى حفلة غداء فى « مانسيون هوس » وقبل ذلك بأسبوع أو

بأسبوعين كان أللنبي قد استقبل استقبالا عائلياً فى فليكستو يوم ذهب لزيارة أمه وكان سنها إذ ذاك ٨٨ عاما .

ثم رجع أللنبي إلى مصر فى نوفبر فألفى الحياة السياسية قد ساءت فى غيبته ووجد عهد الهدوء قد ولى .

فلقد نظم زغلول — ولم يزل بباريس — عن طريق أنصاره فى مصر معارضة لبعثة ملنر بغية مقاطعتها ، وقدم رئيس الوزراء محمد سعيد استقالته بحجة أنه يجب تاجيل البعثة حتى تعقد معاهدة السلام مع تركيا . وإذن أصبح لامناص من إيجاد خلف له . ثم وصلت البعثة فى أوائل ديسمبر . وقد قصد بأعضائها البارزين أن يكونوا ممن يميلون لمصر . وكانوا وبقية أعضائها الآخرين — عدا ملنر — سير رنيل رود Renell Rodd الذى خدم فى مصر أيام كرومر وجنرال سير جون ماكسويل Gén. Sir. John Maxwell الذى قضى عدة سنوات فى خدمة الجيش المصرى وكان فيها شخصية محبوبة من المصريين ، ومستر هرست Hurst المستشار الأول بوزارة الخارجية ومستر سبندر Spender من بين الأحرار الممتازين وكان مدير التحرير وستمنستر جازيت Westminister Gazette وجنرال سير أوين توماس Gen. Sir Owen Thomas وكان من حزب العمال . لكن كان للبعثة عيبان — فى نظر المصريين — خطيران . فأولا تضمن نص تعيينها إبقاء الحماية على مصر وثانياً على الرغم من أنها هيئة انجليزية محضة إلا أنها اقترحت طلب دستور لمصر ، وهذا أمر كان المصريون يعدون أنفسهم أهلا له تماماً ثم هو شيء يعنيهم هم أكثر مما يعنى غيرهم . وكذلك نجحت مقاطعة المصريين للجنة فغادرت مصر بعد ذلك بثلاثة أشهر من غير أن تتصل بالرأى الغام المصرى أى اتصال مباشر إلا أن يكون ذلك عن طريق ضباح

الجماهير العدائى لها : ولكن على الرغم من ذلك كان لها بعض اتصالات عامة من وراء الستار .

ولقد أنفق أللنبي الستة أسابيع الأولى من سنة ١٩٢٠ ومعه لادى أللنبي فى رحلة قام بها فى السودان وذلك — فى الغالب — ليكون الميدان خاليا فى وجه البعثة . وبدأ أللنبي بزياره الملك حسين فى جده وهو الذى طالما تمنى أن « يقبل اللنبي فى جبينه الذكى » والملك حسين كحاكم رجل صعب غير معقول لكنه عظيم الحفاوة جذاب فى إضافته . أهدى لأللنبي سيف شرف ودعاه إلى مأدبة عربية تقليدية تدعى « السماط » لاتقام إلا فى المناسبات الخاصة وفى العادة حينما يحتفى بزيارة واحد من الفاتحين . وراح العبيد يسيرون بأصناف الطعام على طول المائدة خدمة للضيوف الذى كان فيهم أكثر من مائتين من رؤساء القبائل من نواحى الحجاز المختلفة ، ثم غادر اللنبي جده متجها إلى بورت سودان وسواكن وعطبرة والخرطوم ومن هناك ركب النهر إلى الجنوب حتى بلغ بحيرة نو فى مديرية بحر الغزال فلما عاد زار مديريتى كسلا ودنقله حتى إذا وصل كوروسكو — شمال وادى حلفا تماماً — وجد هناك حطام طائرة كانت تقوم برحلة فى إحدى المخاطرات المبكرة التى وضعت أساس الطرق الجوية الطويلة المدى فى أنحاء العالم فى السنوات التى أعقبت الحرب وكان طياروها من جنوب أفريقيه بيير ڤان راينڤالد Pierre Van Reyneveld وكيونتن براند Quintin Brand ولقد بلغا كورسكو من لندن فى سبعة أيام — الأمر الذى يعتبر فى يومها رقماً سياسياً — فاصطحب أللنبي الطيارين معه على ظهر باخرته لكنهما ما كادا يعودان إلى مصر حتى جددا محاولتهما بطائرة أخرى للوصول إلى جنوب إفريقية ولقد تم لها ذلك بعد حادثة فى روديسيا وبذلك كانا أول من أتم رحلة جوية من انجلترا إلى الكاب .

وعاد ملنر ببعثته إلى انجلترا فى مارس سنة ١٩٢٠ . ولو أن المعتدلين من المصريين والمسئولين منهم لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة التى يخرجون بها على تلك المقاطعة إلا أنهم أدركوا الآن أنه من المستحسن الاتصال باللجنة قبل أن تكتب تقريرها ثم اقنعوا زغلول — بعد مفاوضات عدة تصون الكرامة بالسفر معهم إلى انجلترا ليفتح باب المناقشة مع البعثة فى آخر مايو .

ثم قدم ملنر — فى أوائل أغسطس وبعد مفاوضاوضات شاقة طويلة — مشروعا يحقق الى درجة بعيدة أمانى المصريين إذ كانت ستستبدل الحماية فيه بمعاهدة تعطى الاستقلال لمصر مع تقييده ببعض تحفظات خاصة بمصالح البريطانيين . ولقد نصح أللنبي بقوة — وكان يومها فى إجازة بانجلترا فى أغسطس — بأن يقدم المشروع فى الحال إلى مجلس الوزراء وأن يعلن فى حالة إقرارهم له كل من جانب حكومة صاحب الجلالة . وبأن لا يسمح بنشر نصوص ذلك المشروع بحال ما قبل أن يدرسها مجلس الوزراء ، ولكن لم يؤخذ بنصيحة أللنبي أو لعلها وصلت متأخرة . إذ قدم ملنر — فى اندفاع عجيب من دبلوماسى محنك مثله — مذكرة بمقترحاته لزغلول من غير أن يحصل منه على أية موافقة عليها أو حتى دون أن يتعهد له زغلول بتأييدها .

بل لقد راح زغلول — لخوفه من فقدان تأييد الجماهير المتقلبة — يصرح بأن الأمة المصرية يجب أن توافق على تلك المقترحات ، وهى نفسها الأمة التى طالما نادى بأنه وحده يمثلها الذى تثق به ، وسمح له بإرسال بعض زملائه إلى مصر ليجس بهم نبض الرأى العام هناك وطبعا أعلنوا لهم نصوص المقترحات وكانت النتيجة أن نظر المصريون اليها — كما سبق أن توقع أللنبي — على أنها أدنى عرض قدمته بريطانيا ، وأصبح عبثا بعد ذلك كل ما أعلنه كرزون من أن تلك الموافقة إنما كانت اقتراحا فقط اقترحته بعثة ملنر وأنه ليس من

الضرورى أن توافق عليها الحكومة البريطانية ، ولكن ملنر ـ العضو فى الوزارة ـ كان فى نظر المصريين ممثلا تام السلطات للحكومة البريطانية فى المفاوضات . وبهذا فقد أصبح كل قول يخالف ذلك دليلا عندهم على سوء نية البريطانيين وإذن كان لكره أللنبى لطريقة المساومة فى المعاهدات ما يبرره.

وحتى بعد ذلك كان من المحتمل أن تتم الموافقة على تلك المقترحات ، لو أن زغلول أبدى ما يدل على زعامته ، إلا أنه برفضه التدخل سواء بتأييد المشروع أو برفضه ترك أنصاره فى حيرة من أمرهم بينما أعطى لخصومه الفرصة التى يرجونها . وبعد مناقشات طويلة غير مثمرة قدمت اللجنة تقريرها، ثم تقرر فتح باب المفاوضات على أساس مقترحاتها مع وفد رسمى من مصر .

وكان ذلك فى سنة ١٩٢١ بعد انقضاء عامين تقريباً على الاضطرابات التى عينت البعثة لتحقيقها وبعد عام على زيارتها لمصر . ولكن كان لابد من تأخير آخر ، إذ أن مفاوضات تأليف الوفد كانت طويلة ملتوية . فالسلطان فؤاد ، وعدلى رئيس الوزراء ، ومعبود الشعب زغلول كل منهم أرادأن يكون له الصوت الأعلى فى تكوينها .

ولما كان زغلول قلقاً على مكانته وغيوراً من ازدياد نفوذ عدلى كرجل معتدل فقد أبرق من باريس فى مارس سنة ١٩٢٠ قائلا إنه مستعد لتأييد وزارة عدلى بشرط أن تلغى الأحكام العرفية والرقابة وأن يرأس هو وفد المفاوضة الرسمى الذى يجب أن يضم أغلبية من أنصاره . ثم اسرع بعدئذ بوضع خطط عودته إلى القاهرة حيث وصل فى ٥ إبريل . ولقد أظهر عدلى نحوه كل ما يثبت به صداقته فذهب بنفسه الى المحطة لتحيته كما لم يتخذ أى إجراء من شأنه أن يحول بين الأمة وبين إظهار أحر تحياتها لزعيمها الوطنى.

وكانت رحلته على طول السكة الحديد من الاسكندرية إلى القاهرة

فوزاً باهراً . ثم امتازت بالمناظر الرائعة عند ما وصل العاصمة . وغدا اليوم بطبيعته عطلة وطنية غادرت فيه النساء خدورها — مما لم يحدث قبل ذلك — ليشاركن فى استقبال من أعظم الاستقبالات التى قوبل بها مواطن فى أى بلد من بلاد العالم ، ولابد أن يكون عدد الذين احتشدوا فى المسافة القصيرة نسبياً بين محطة السكة الحديد وبين منزل زغلول نحواً من ٤٠٠٠٠ من الأشخاص على الأقل . ولقد امتلأ الطريق بالعربات التى ترفرف فوقها الأعلام.وسعف النخيل ، وبالمركبات من كل صنف غطيت بالأزهار وعليها الفتيات يرقصن وبالموسيقات الشعبية من كل لون ، وبالجمال والحمير ، حتى تألف من كل ذلك مشهد رائع عجيب .

لم يطل الوقت كثيرا حتى دب النزاع بين زغلول وعدلى فقد بين زغلول بعد وصوله بثلاثة أسابيع فى إحدى خطبه أن التعاون بينه وبين عدلى إنما يتوقف على الموافقة التامة على شروطه . وأعلن عدلى فى نفس الوقت أن زغلول يؤيد الحكومة إلا فيما يختص برئاسة وفد المفاوضات ثم أكد أنه يجب أن يكون رئيس الوزارة هو رئيس الوفد الرسمى حسب السوابق . وبدأ زغلول يفقد مكانته فأعلن خمسة من وفده ثقتهم بعدلى وأخذ زغلول يشتد فى حملته على عدلى كلما أحس بتضاؤل نفوذه حتى كانت نتيجة ذلك المباشرة أن حدثت فى مايو اضطرابات خطيرة فى الاسكندرية مات فيها عدد كبير . وكان القتلى من المصرين ثلاثين ، وقتلى الأوربيين أربعة عشر ، وكان الجرحى من المصريين مائة وثلاثين بينما كان كان جرحى الأوربيين تسعة وستين .

وانتُقد أللنبي لسماحه لزغلول بالعودة ، ولعدم اتخاذه الاجراءات الرادعة الكفيلة بمنع حوادث الإسكندرية أو بقمعها فى الوقت المناسب . لقد كان

جليا أن عودة زغلول إجراء خطير قد يعكر صفو السلام ، ولكن كان من الصعب أن يرفض السماح بالعودة إلى مصر لشخص سمح له بالمفاوضة فى انجلترا ولشخص كان عدلى نفسه فى مفاوضات معه لتأليف وفد مشترك .

كانت اضطرابات الاسكندرية استمرارا لحادثة وقعت فى طنطا فى أواخر إبريل حين أطلق البوليس النار على جمهور عنيد خطر ، فقتل ثلاثة وجرح آخرين . ولقد نصح أللنبي فى حينها بأن يقف البوليس موقفا حاسما إزاء هياج الجماهير ولكن وافق عدلى وهو الضعيف دائما فى وقت الشدة على القيام بتحقيق مع البوليس حملهم فيه شيئا من المسئولية ، وبذلك أضعف من روحهم المعنوية ولم يعد فى مقدوره أن يطلق النار فى الحالة الشبيهة بتلك والتى وقعت فى الاسكندرية فلو اتبعت نصيحة أللنبي فى حادث طنطا لما وقعت أبدا اضطرابات الإسكندرية . أما رغبته فى عدم التدخل فورا بالجيوش البريطانية فكانت اتباعا منه لسياسته وهى أنه إذا كان المصريون أهلا للاستقلال فعليهم وحدهم أن يقمعوا اضطراباتهم .

وفى النهاية سافر الوفد الرسمى برئاسة عدلى إلى لندن فى أول يوليه . ولم يكن يتوقع أللنبي لهذه المفاوضات بين كرزون وعدلى من النجاح أكثر من الذى توقعه لمفاوضات ملنر — زغلول وهذا ماحذر منه مراراً وزارة الخارجية البريطانية كل تلك الشهور . إذ لم يجد عدلى — إزاء زغلول الذى مازالت له السيطرة على أراء الجماهير — فى نفسه من الشجاعة ماينسحب به من الموقف الذى سبق أن اتخذه زغلول مع ملنر . ومن هنا استمرت المفاوضات — التى كان يجب أن تنتهى فى ظرف خمسة أسابيع أو ست — من يوليه إلى نوفمبر وكانت مسألة إقامة القوات البريطانية فى مصر هى العقبة الكؤود ، فلم تستطع صيغة من صيغ المتفاوضين تذليلها.

وهدأ الجو السياسى فى غيبة عدلى هدوءاً معقولا رغم ما كان يثيره زغلول من هياج ورغم زيارة أربعة من حزب العمال بدعوة من زغلول صرحت لهم بها الحكومة البريطانية ضد معارضة دار المعتمد البريطانى ، ورأس ثروت الوزارة بالنيابة عن عدلى مدة غيابه ونجح فى ذلك نجاحا كبيراً ، ولقد كانت الأغلبية من المصريين صادقة الرغبة فى الوصول إلى الاتفاق وفى الهدوء ، وكان زغلول قد ارتكب أخطاء جساماً أفقدته كثيراً من منزلته لولا خيبة الأمل التى سببها فشل المفاوضات وما أحدثته المذكرة الشديدة اللهجة التى أمر أللنبي بتقديمها للسلطان من أثر سيء ، فاستقال عدلى بعد ذلك بقليل ، وزاد الغضب الشديد الذى أثارته فى مصر تلك المذكرة من صعوبة الوصول إلى تأليف وزارة جديدة . وهكذا إنهار هذا المركز السياسى القوى الذى اكتسبه عدلى فى مصر لنفسه وللمعتدلين معه وارتفع زغلول مرة أخرى من أطلال حماقاته كما يرتفع الطائر الخرافى ، لقد كان سروره بفشل مفاوضات عدلى جليا لايخفى على أحد وليست هذه منه بالنظرة الوطنية بل كانت منه نظرة شخصية

ولقد حل الوقت الذى استعد فيه ثروت أن يقبل الحكم على أساس برنامج وافقت عليه وزارة الخارجية لو لا أن ضيع الفرصة منه ما أثاره زغلول من هياج ، وأصبح الموقف فى منتصف ديسمبر بحيث لايمكن معه إقناع أى وزير بتكوين حكومة تدير الأمور فى مصر ، وبذلك أوجدت لأللنبي محاولة المساومة للوصول إلى معاهدة مأزقا وترك له أن يتخلص منه

ثم وقع فى القاهرة أثناء ذلك ماأخل بالنظام فقرر أللنبي — بناء على نصيحه موظفين مسئولين خشوا خطورة القلاقل واتساعها — أن يمنع اجتماعاً طلبه

زغلول — المهيج الاول — فى ٢٢ ديسمبر ورد زغلول على ذلك المنع ببيان وجهه الى الأمة .

والآن كان أللنبي قد أدرك أنه مامن سبيل الى التخلص من مأزق العلاقات الانجليزية — المصرية طالما بقى زغلول والمحيطون به فى مصر — فقرر لذلك أن يتخذ خطوة جريئة فأمر باعتقال زغلول وخمسة من رفاقه فى ٢٣ ديسمبر ونقل الجميع تحت الحراسة الحربية إلى السويس فى طريقهم إلى المنفى — وقد دعا الضباط البريطانيون المعسكرون بالسويس زغلول إلى حفلة عيد الميلاد فى ٢٥ ديسمبر ، وفى ٣٠ ديسمبر غادر مصر إلى عدن حيث ظل الى أول مارس سنة ١٩٢٢ ومن ثم نقل إلى جزائر سيشل — ولقد خيف أن تنفجر مصر من تصرف أللنبي هذا الشديد فيحدث فيها مرة أخرى مايقلب النظام بصورة هائلة . وكان هذا رأى الكثيرين إلا أن أللنبي لم يشاطرهم رأيهم فقد صمم كل التصميم على أن يقمع بشدة كل محاولة للإخلال بالنظام ووزعت قوات عظيمة فى شوارع القاهرة قمعت بها المظاهرات فى الحال وأرسلت المراكب الحربية إلى السويس والاسماعيلية والاسكندرية فى الوقت الذى أخذت الوحدات البحرية تذرع فيه النيل ، ومن غير شك لم ينس أهالى الاسكندرية درس مايو الماضى إذ أظهروا ميلا قليلا لإثارة القلاقل ، وسرعان مافهم منظمو السوء أن فرصة القيام باضطرابات واسعة النطاق ضيقة أمامهم

وشكراً لإجراءات أللنبي الصارمة . لقد عاد الهدوء فى آخر ديسمبر وانتهى الإخلال بالنظام ، فعاد كل موظفى الحكومة إلى أعمالهم بعد إضراب قصير قاموا به حفظاً لكرامتهم ، ورجع التلاميذ — وكانوا لايزالون مضربين — إلى مدارسهم بعد تهديدهم بالفصل النهائى ، وقرر المحامون وقف الإضراب

مستبدلين ذلك بلبس الحداد مدة شهرين ، ثم عادت مصالح الحكومة إلى العمل بحالتها الطبيعية

ولكن لم يكن كل ذلك ليعنى أن مصر قد عادت إلى أى استقرار سياسى. نعم عاد النظام بإجراءات حربية شديدة ولكن بقيت نفس المشاكل الأساسية أمام أللنبي ليحلها . فما زالت البلاد بغير وزارة بل لا أمل هناك فى قيامها حتى يوجد طريق للخروج من ذلك المأزق . وبذلك اضطر أللنبى فى ٢٨ ديسمبر أن يصدر قرارا يخول به وكلاء الوزارات — وكانوا كلهم — إلا واحداً من الانجليز — وظيفة الوزراء وسلطتهم فى المسائل الادارية إلى أن تتألف الوزارة الجديدة . ولكن كان من المستحيل على وكلاء الوزارات الانجليز أن يديروا شؤون الحكومة فى البلاد إلى جانب موظفين مصريين معادين لهم . لقد تحتم إذن على أللنبى أن يوجد لنفسه مخرجا يتخلص به من ذلك المأزق .

الفصل الرابع

تصريح ١٩٢٢

طمئنوا نفوسكم أيها السادة فسأنهى هذا الصراع
شكسبير

كان تصريح حكومة الملك فى فبراير سنة ١٩٢٢ — وهو الذى ألغيت به الحماية على مصر — وأعلنت فيه مصر دولة مستقلة ذات سيادة الحد الفاصل الملحوظ فى تاريخ العلاقات بين بريطانيا ومصر وهو أعظم عمل قدمه أللنبي فى تاريخه السياسى .

ولقد انتقد منه هذا العمل وأسيء فهمه بل لقد قدم للناس مشوها ولذلك وجب أن تدرس أعمال أللنبي ودوافعه فى ديسمبر سنة ١٩٢١ وفى الشهرين الأولين من سنة ١٩٢٢ دراسة كاملة ما استطعنا ذلك إذ هى جزء أساسى من ترجمته .

لقد حذر أللنبي الحكومة البريطانية أكثر من مرة خلال سنة ١٩٢١ لتتخذ العدة التى تواجه بها فشل المفاوضات . ولم يخف أللنبي كذلك رأيه الخاص فى أن تلك السياسة يجب أن تتضمن إلغاء الحماية . ولقد انتهى أللنبي الان بعد سنتين من المساومات إلى أن الوقت قد حان ليرغم الحكومة البريطانية على الاعتراف بحقائق الموقف فقد ترك لينفذ سياسة لا يمكن تنفيذها وهاهى مصر الآن بغير وزارة والآلة الحكومة فيها معطلة تماما بينما انتهى زمن التعاون مع المصريين ، ذلك التعاون الذى تأسس عليه الحكم البريطانى فى عهد كرومر وفيما تلاه من عهود .

وتوصل أللنبي فى الإسبوع الأخير من سنة ١٩٢١ والأسبوع الأول من سنة ١٩٢٢ بطريق أحد مرءوسيه إلى الحصول على الشروط التى يستطيع بها الحزب المعتدل ورئيساه عدلى وثروت التعهد بتأليف الوزارة. ثم تم الاتفاق على الصيغة فى ١٢ يناير وأعطى ثروت كشفا مرضيا بأسماء الذين كانوا على استعداد للعمل معه من الوزراء، وكان أللنبي فى موقف يسمح له بأن يبرق بذلك الحل إلى وزارة الخارجية للموافقة عليه.

ويمكن بقدر الإمكان تلخيص وتبسيط وجهة نظر أللنبي ووجهة نظر الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت فيما يأتى: كانت الحكومة مستعدة — بعد عرض المسألة على البرلمان — لالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر، على شريطة أن يرتبط المصريون بشروط خاصة ببعض المصالح والحقوق الانجليزية وأهمها سلامة مواصلاتنا الامبراطورية، وحماية الأجانب فى مصر ومركزنا فى السودان. وهذا ما رفضه المصريون. ثم نصح أللنبي الحكومة البريطانية بوجوب إلغاء الحماية وإعطاء مصر الاستقلال فى الحال، كما يجب على بريطانيا العظمى فى نفس الوقت أن تعلن احتفاظها بحرية العمل إذا تطلبت مصالحها ذلك — فى بعض المسائل التى عرفت فيما بعد باسم «التحفظات» إلى أن يحين الوقت الذى يمكن أن يتفق فيه على هذه المسائل اتفاقاً ودياً. ولكن رأت الحكومة أنه من المحال علينا أن نتنازل عن مركزنا فى مصر بإلغاء الحماية ما لم نحصل أولا على تعهدات من المصريين بشأن مصالحنا الخاصة. فرد على ذلك أللنبي بأن مركزنا فى مصر لا يعتمد فى الواقع على حماية خيالية غير محدودة بل يعتمد على قوتنا البحرية فى المتوسط كما يعتمد على حامياتنا الموجودة فى الدلتا فهذه هى ضماناتنا الحقيقية فاذا أعلنا ونحن الطرف الأقوى — إننا مصممون على حفظ حقوقنا فى المسائل الأساسية لم يكن هناك خوف

من إعطاء الاستقلال لمصر بل سيكون لذلك فائدة كبرى إذ سيرجع التعاون المصرى بقوته مرة أخرى .

وطلب أللنبي فى برقيته لوزارة الخارجية رداً منها فى الحال ، فأدى ذلك إلى اتهـامه ، « بالهجوم » وبتصويبه فوهة الغدارة الى رأس الحكومة ، وبأنه أرسل اليها انذاراً نهائياً ، وبأنه — وذلك حق — كان فيها جافا كما كان عسكريا . ولـكن التفسير الحقيقى لذلك هو أن أللنبي كان يدرك أنه لم يعد أمامه من الوقت ما يضيعه كما كان على علم بطبيعة السياسيين المصريين المتقلبة كذلك كان الحل الذى أسرع بطلبه الآن شيئاً غير جديد بل هو نفسه الحل الذى سبق أن قدمه للحكومة مراراً فى السنة الفائتة ، ثم هو حينئذ كان مصمما على ايجاد المخرج من غير ابطاء ، ولقد أبرق أللنبي — فى نفس الوقت الذى أرسل فيه برقياته الرسمية — ببرقية خاصة الى اللورد كرزون وزير الخارجية يطلب فيها مساعدته وأجابه كرزون بأنه سيبذل أقصى ما يستطيع ليحصل على قرار سريع من الوزارة ، وبأنه يرجو أن تـكون الاجابة مناسبة . وفى الواقع أوصى كرزون بكل قوته فى مجلس الوزراء باتباع اقتراحات أللنبي إلا أنه انحنى فى وجه المعارضة التى لقيها شأنه فى ذلك شأنه فى مناسبات أخرى . ثم أرسلت لألنبي فى ١٨ يناير برقية تقول إن الوزارة لا تستطيع الموافقة على مقترحاته كما قدمت واقترحت عليه فيها أن يرسل اثنين من مستشاريه إلى الوطن هما سـير چلبرت كلايتون ومستر آموس ليوضحا لهم المسألة أكثر من ذلك ولم يكن هذا الاقتراح بالذى يلق أى ميل من أللنبي فأجاب فى الحال بأن مستشاريه موافقان تماما على الحل الذى سبق أن اقترحه وبأن ارسالهما إلى الوطن انمـا هو تضييع للوقت لا جدوى فيه وبأن أحد موظفيه مستر سلبي Selby سيكون فى انجلترا بعد قليل وسيمكنه حينئذ إعطاء أى إيضاحات مسهبة يرونها ضرورية

ثم كرر فى برقية شخصية ثانية لكرزون حججه الرئيسية مبيناً له خطر التاخير وختمها بتقديم استقالته إذا رفضت مشورته .

ولما انتقد أللنبي فيما بعد لسبب أسلوبه هـــذا ولسبب تسرعه فى تقديم استقالته فقد وجب أن يتضح أن تقديم استقالته هذه إنما كان فى برقية خاصة منه إلى كرزون ، وإذن لم تكن استقالته استقالة نهائية ، بل كانت نية أللنبي أن يقوى بها مركز كرزون وزير الخارجية فى مناقشاته مع الحكومة . وكان كرزن قد أبرق إلى أللنبي بأنه سيؤيده أمامها حتى لو أدى ذلك الى تقديم الاستقالة ، وبذلك اعتقد أللنبي أنه بوضعه استقالته بين يدى كرزون إنما يعطيه سلاحه إضافياً ليستعمله فى وجه الحكومة ، ثم إن التلغرافات الشخصية المماثلة لا تعرض فى العادة على أعضاء الحكومة الآخرين كما تعرض عليهم التلغرافات الرسمية وهكذا عرض تلغراف أللنبي الشخصى ذاك دون الاشارة إلى تلغراف كرزون الشخصي اليه . ولقد اعتبرت استقالة أللنبي هذه فى نظر بعض الوزراء الجاهلين بحقيقة الأحوال كما لو كانت محاولة من قاطع طريق راجل يريد أن يلحق بعربة الحكومة .

وفى ٢٤ يناير أبرقت وزارة الخارجية إلى أللنبي بصيغة أخرى — وصفها كرزون فيما بعد بأنها قنطرة أقامها لأللنبي بصعوبة — قوامها رغم ذلك نفس الاقتراح بأن على المصريين أولا أن يوافقوا على مطالبنا ثم تلغى الحماية بعد ذلك وأجاب أللنبي فى ٢٥ منه بأنه سيحاول تنفيذ سياسة الحكومة هذه وإن لم يكن له أقل أمل فى أن يرضى العمل بتلك الشروط وزير مصرى ولهذا لم يجد لنفسه حيلة فى تقديم استقالته رسمياً وبصورة نهائية وفى نفس الوقت أخبر المستشارون الرئيسيون الأربعة فى الحكومة المصرية — وهم الذين قدمت

اقتراحات أللنبي بمشورتهم — وزارة الخارجية البريطانية بأن استقالة أللنبي معناها بالطبع استقالتهم أيضاً .

وبعد اجتماع آخر طويل للوزارة أرسلت برقية اتهام مطولة لأللنبي فى ٢٨ يناير اتهمته فيها الوزارة بأنه غير فجأة وبدون تنبيه منه سياسة استشارته فيها الحكومة ، وسياسة كانت فى معظمها نتيجة لنصائحه هو ، كما اتهمته بتضليلهم فيما يتعلق بأمل إيجاد وزارة تستطيع العمل بتلك السياسة ، وبأنه الآن راح يقدم انذارا نهائياً للحكومة ويطلب منها إجابة فى الحال بغير مناقشة ، ثم ختمت البرقية بأمر أللنبي بالعودة الى الوطن لاستشارته وفى صحبته آموس وكلايتون وكلاهما من مستشاريه الرئيسيين . وفى الحقيقة كانت أغلبية الوزارة قد قررت تعيين آخرين مكان أللنبي ومستشاريه ، واذن كان القصد من تلك البرقية أن تعد الوزارة مبررات عملها هذا فيما بعد . كانت هذه البرقية فى الواقع خطأ تاما فى فهم الموقف وما أيسر أن تدحض اتهاماتها بل لقد أعطت لأللنبي حجة قوية للرد عليها ، ولكنه رغم ذلك لم يرسل اليهم اجابة مباشرة بل طلب الى موظف مشهود له بالكفاءة الفائقة من معاونيه أن يعد رسالة يدحض بها اتهامات وزارة الخارجية له وحملها الى الوطن ، وتعد هذه الرسالة من خير ما كتب للتدليل على شيء والتعبير عنه ، فقلب بها أللنبي حجج وزارة الخارجية رأساً على عقب . ويجمل ذكر الفقرة الأخيرة منها كشيء مميز لأللنبي .

« ان المهمة التى كلفتنى بها حكومة صاحب الجلالة هى أن أبقى حماية جلالته على مصر ولقد وفيت بذلك مع اعتقادى بأنها غير قمينة بالبقاء ، بل لقد نصحت الآن بانهائها بتصريح من جانب واحد كما سبق أن أعلنت كذلك.

ولقد بينت لحكومة صاحب الجلالة اتجاهاً أرى اتفاقه مع التقاليد العامة للسياسة البريطانية وللمؤسسات البريطانيـــة ، ثم هو فى صميم مصلحة الامبراطورية زيادة على ملاءمته لنمو مصر السياسي ذلك النمو الذى حاولت أن تشجعه دائما حكومة صاحب الجلالة ، والذى كان هدف الأعمال التى قام بها من سبقنى من أولئك الرجال الذين عملوا على رفاهية الشعب المصرى فى الوقت الذى خدموا فيه وطنهم » .

غادر أللنبي مصر فى ٣ فبراير ولقد كانت أخبار الحماس البالغ الذى ودعه به المصريون والبريطانيون والأجانب لا فى القاهرة فحسب بل فى سائر المحطات الأخرى على طول الطريق ثم فى الأسكندرية أول سبب جعل مناوئيه فى الوطن يشكّون فيما إذا كان من السهل عليهم التخلص من شخص بلغ حب الناس له هذا المبلغ ثم قوى شكوكهم هذه ما نشرته الصحف من المقالات — وبخاصة جريدة التيمس — تأييدا لأللنبي وذلك منها على غير معرفة تامة بمقترحاته . ولقد كان لموقف التيمس منه أهمية خاصة إذ كان محررها الخارجي الفذ سير فالنتين شيرول Sir Valentine Chirol فى مصر منـذ قليل وكان أللنبي قد قابله بفتور لتضايقه من التعليقات التى نشرت فى جريدته على السلطان لا عليه ، فلم يكن لشيرول والحالة هذه ما يحفزه الى محاباة أللنبي لولا فهمه للمسألة المصرية ، فلما أن علم فى لندن بحقيقة المقترحات التى عرضها أللنبي راح يؤيده فى حرارة ، بل أبرق إلى لورد نور ثكليف صاحب التيمس والذى تصادف مروره يومئذ بمصر فى طريقه الى الوطن — يقترح عليه البقاء بمصر ريثما يدرس المسألة المصرية فى موضعها وأرسل نور ثكليف بدوره برقية لأللنبي يسأله عما إذا كان ممكنا له أن ينزل ضيفا بدار المعتمد البريطانى فى القاهرة وأخذت الحيرة أللنبي إذ كان آخر من يرجو تأييد الصحافة وإذ كان لا ثقة له

فى رجالها غير أن رجاله أقنعوه باستضافته لنورثكليف وما كاد هذا يمضى أياما عديدة حتى طفق يجمع خلالها كل أنواع الآراء فى مصر ، بل لقد رأى بعينه وداع أللنبي المؤثر . وهكذا كانت المساعدة القيمةالتى قدمتها التيمس فى الأسابيع التالية أكبر عامل فى نجاح أللنبى .

ولقد أوضح اللورد نورثكليف بعد ذلك أن آمال لمصريين فى تسوية كريمة تركت تنمو مدة عامين بغير مقاومة فلما أن فشلت مفاوضات عدلى كرزون نشأ على أثرها شعور عام بالمرارة وعدم الثقة شلت بسببه الحكومة فى مصر وبذلك أصبح الموقف عجيبا فيها ، فهذه الحكومة يديرها منذديسمبر وكلاء الوزارات وهذا وضع لا يمكن أن يستمر إلى غير نهاية ولم يظهر أى أمل فى علاج ذلك الموقف مالم يوجد حل لهذا المأزق ، ثم أخذ فى نفس الوقت موقف الموظفين البريطانيين الذين تعتمد الوزارة البريطانية عليهم فى إدارة الآلة الحكومية فى مصر ، يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وتبين للورد نورثكليف أن من كانوا فى مصر فهموا حقيقة الموقف وأحسنوا التصرف بحكمة وشجاعة ثم انتهى إلى أن المعتمد البريطانى قد مهد الطريق خير تمهيد لأحسن وسيلة عملية يمكن أن تحل بها المشكلة المصرية ، وأنه من الأنفع الاستفادة من نصائحه إذ هى تؤكد فى الحال حسن نية بريطانيا وهذا ما كانت تستلزمه الحال فى مصر بسرعة ثم قال إن تلك المقترحات لو نفذت لوضعت المصريين فى الطريق الذى أرادوه لأنفسهم ، كما أنها لا تعرض مصالح بريطانيا المهمة للخطر بأى شكل من الأشكال . ثم أوضح لورد نور تكليف أخيرا أن هناك تضامن فى الرأى وراء محاولات أللنبي للوصول إلى الحل وظهر ذلك بوضوح لا يدعو الى الخطأ بدليل ذلك الجمهور الكبير الممثل لجميع الطبقات الذى ودع الفيكونت أللنبى فى المحطة عند رحيله إلى لندن .

ووصل اللنبي إلى لندن فى الصباح الباكر من يوم ١٠ فبراير فقابله على المحطة سير هنرى ويلسون Sir Henry Wilson رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية والسير فيليب شتوود Chetwood والمستر سلبي Selby وكانت حالة اللنبي المعنوية طيبة فلم يلبث أن أعلن لأصدقائه فى الحال أنه لن يتزحزح قيد أنملة كما أنه لن يحاول إقناع أحد رافضاً بذلك من أصدقائه النصيحة التى توقع مجيئهم من أجلها . وعلى الرغم من تحذيره بأن الوقت لم يحن بعد للتوجه إلى وزارة الخارجية الا أنه صمم على سرعة الذهاب إلى دوننج ستريت ليترك لهم الرسالة التى يرد بها على ما سماه « الاتهام الخبيث » فى برقية ٢٨ يناير التى أرسلتها له وزارة الخارجية .

وأن ما قدر لهذه الرسالة فيما بعد لشيء طريف ، فلقد كتب عليها كالعادة المتبعة فى مثل هذه الوثائق الحكومية الهامة « تعرض على جلالة الملك وعلى حكومته » ولكن بالرغم من ذلك لم يكد لورد كرزون يقرأ صفحاتها الأولى حتى أسرع فاتصل بالتلفون بفرع وزارة الخارجية المختص ليمنع عرض تلك الرسالة ، وما قابل اللنبي فى المساء حتى انصبت ملاحظاته الأولى عليها فابتدر اللنبي قائلا : « أنها لوثيقة قوية تماماً يا لورد أللنبي ولا بد أن من كتبها شخص ماهر جداً . انك لم تكتبها بنفسك أنت فمن كتبها لك ؟ » وأجاب اللنبي على هذه المبادرة غير اللبقة بقوله « كلا . لم أكتبها أنا ولكنى موجود فى كل كلمة من كلماتها ومستعد أن أمضى كل سطر منها إذا كانت لا تعجب حضرة اللورد . لقد كتبها لى رجل حاذق بالفعل » ثم قال كرزون بأنها وثيقة لايناسب عرضها على الملك أو الحكومة إذ هى ليست من نوع الوثائق التى اعتاد هو — بصفته وزيرا للخارجية — أو اعتادت الحكومة تسلمها من ممثليها فى الخارج ، فقال أللنبي أنه آسف لذلك ، ولكن بما أن اللورد كرزون قد رأى من المناسب

تقديم بعض الاتهامات ضده فى البرقية المرسلة — وقدعرضت هذه الاتهامات من غير شك على الحكومة فربما إذن تكون هذه الرسالة رداً منه على تلك الاتهامات ومن الواجب لذلك أن يصر هو على عرضها .

وأنفق بعد ذلك كرزون قليلا من الوقت فى محاولة اقناع أللنبي بسحب استقالته وراح يذكره بتجربته هو يوم كان نائباً للملك فى الهند إذ كثيراً ما كانت ترفض الحكومة مقترحاته ولكنه مع ذلك لم يكن ليستقيل وأضاف بأن هذا هو نفس ما يحدث الآن مع لورد ريدنج نائب الملك الحالى وأجابه أللنبي بأنه لا يريد أن يقارن بين عمل اللورد كرزون وعمل اللورد ريدنج وبين عمله هو فان مسلكه هو واضح وأن كلمته كانت حينئذ عملة سائرة بين القاهرة والخرطوم فاذا هو وافق على العودة الى القاهرة بعد رفض مقترحاته فمعنى ذلك أنها لن تساوى قيمة الورق الذى كتبت عليه وثانية لا يستطيع أن يضحى بأى ثمن بالثقة التى يتمتع بها فى مصر وعندئذ سأله كرزون فى عطف عن كيفية تمكنهم من ايجاد خلف له أنها ستكون أكثر صعوبة كما ستكون غير مناسبة فقال اللنبي « لو سألتنى النصح لقلت لك أرسل رجلا فى مثل كفاءتى أو خيرا منى لو استطعت أن تجده » .

ولما لم يستطع كرزون التأثير على أللنبى راح يقول له بأن من الواجب عليه أن يقابل رئيس الوزراء ولكن أصر أللنبى مرة أخرى على ضرورة اتخاذ قرار فى الحال ثم انتهى الحديث بنقد مر صبّه كرزون على مسلك المستشارين لتقديمهم استقالتهم تضامنا مع أللنبى فاجاب أللنبى بأنه يعتبرهم قد خدموه بولاء كما خدموا حكومة جلالة الملك وبأنه لا يسمح بالمناقشة فى هذه النقطة وفيما هو يغادر القاعة سأله كرزون عن مكان اللادى أللنبى فلم

يستطع أللنبى إلا أن يرد عليه بطلقة أخيرة « لقد تركتها ورائى فى مصر خشية وقوع الاضطرابات لو صحبتها معى » .

ولقد ترك هذا الحديث الذى استمر ساعة ونصف تصميم أللنبى كما هو ثابتا لا يلين . وكان اليوم التالى يوم سبت والعمل الوحيد الذى أداه أللنبي فيه هو ذهابه بنفسه إلى وزارة الخارجية ليتأكد من أن رسالته قد عرضت . ولقد أخبره جلالة الملك فيما بعد بأنه قرأها وتذوق كل كلمة من كلماتها .

ولقد حدد يوم ١٣ فبراير للمقابلة الهامة مع رئيس الوزراء إلا أنها أجلت فى نفس اليوم إلى صباح ١٥ فبراير وكان موقف الوزارة حينئذ سيئا إذ وجد أللنبى المزيد من معاونة الصحافة بينما كانت رسالته هو ردا مفحما على الاتهامات التى أريد بها تبرير إقالته كما كان له الحق وأمامه الفرصة — بصفته لوردا — لكى يعرض حالته فى مجلس الشيوخ فى حالة قبول استقالته . ولقد ترك لرئيس الوزراء مستر لويد جورج محاولة إخراج أللنبي من الموضع الذى خندق فيه والذى لم تجد فى إخراجه منه أدلة وزير الخارجية .

ولقد ذهب مع لورد أللنبي إلى الاجتماع سير جلبرت كلايتون ومستر آموس . بينما كان لورد كرزون عونا للمستر لويد جورج وما كادوا يجتمعون حتى قوبل أللنبي بنيران حامية من الأسئلة والاعتراضات على مقترحاته لكنه بادرهما بإظهار بعض نفاد الصبر شاكياً تعدد المرات والفرص التى رفضت فيها نصائحه ، فقال رئيس الوزراء « ولكنك تطلب منى الآن أن أترك كل مركزنا فى مصر دون أى ضمان » فقاطعه آموس فى نفس اللحظة قائلا « ليس ذلك ياسيدى وصفاً صحيحا لمقترحات لورد أللنبي » فأغضى عندئذ مستر لويد جورج عن آموس معاودا ذكر اعتراضات الحكومة فعاد آموس

وجاوب عليها وبينما المناقشة مستمرة إذا بأللنبي يتدخل مقاطعاً « حسناً ياسيدى، لافائدة إذن من المناقشة أكثر من ذلك . لقد أخبرتك بما أعتقد ضرورته ولاتريد أنت ذلك ، وليس من شأنى أن أرغمك عليه . ولقد انتظرت خمسة أسابيع ليصدر القرار فلن أستطيع الانتظار بعد اليوم أكثر من ذلك وسوف أخبر أنا لادى أللنبي لكى تعود إلى الوطن » فنهض حينئذ رئيس الوزراء ووضع يده على ذراع أللنبي قائلا « لقد انتظرت خمسة أسابيع يالورد أللنبي ، فهل يضيرك أن تنتظر خمسة دقائق أخرى » ثم أعلن فى نفس الوقت موافقته على مشروع أللنبي بعد إدخال بعض تعديلات قليلة عليه ، فقال أللنبي أنه سيفحص تلك التعديلات ثم يعطى إجابته النهائيه عليها ظهر ذلك اليوم ؛ وسرعان ما أكد له مستشاروه — الذين وضع أمامهم التغييرات المقترحة بعد الاجتماع — بأنها تغييرات فى الصيغة لا أهمية لها على الإطلاق ، وبأنه قد حصل على كل ما أراد .

ثم بقى مجهود واحد كان من شأنه أن يعرقل الحل الذى اتفق عليه ، ولم يأت ذلك من أعضاء الحكومة الذين سبق لهم أن قاوموه دائماً ولا من المستر ونستون تشرشل الذى كان أكثرهم تصميما فى ذلك بل أتى من كرزون ، كرزون الذى كان فى الأصل يؤيد هذا الحل بحرارة إذ أخذ يقوم بمجهود ضعيف يحاول به العودة الى الاقتراح القديم القائل بأنه لاسبيل إلى الغاء الحماية إلا بعد الاتفاق على مسائل تحفظات ؛ فلما وافقت الحكومة نهائياً على الوثائق التى اتفق عليها رئيس الوزراء مع أللنبي راح كرزون يتكلم فى تذمر عن « غباوة أولئك الجنود » . لقد ترك فى نفسه فشله فى التأثير على أللنبي فى محادثاته معه من غير شك ألماً دائماً.

وغطت الحكومة هى الأخرى فشلها بسحابة من التصوير الخاطىء . فنى حدى المناقشات بمجلس العموم فى ١٤ مارس لتأييد إلغاء الحماية على مصر

راح مستر أوستن تشمبرلن الذى تكلم باسم الحكومة يصور المسألة بشكل يفهم منه أن أللنبي هو الذى تقهقر لا الحكومة فقال « أرانى سعيداً حين أقول إن اللحظة التى جمعتنا بلورد أللنبي وجهاً لوجه قد أزالت كل خلافاتنا معه ، إذ أدرك فى الحال أننا لا نستطيع تغيير الحالة القائمة فى مصر فيما يختص بتلك المسائل من غير أن نحصل على ضمان نهائى بقدرتنا على حماية مصالحنا والقيام بتعهداتنا . » ثم كرر نفس تشويه الحقائق وبشكل أقوى من ذلك مرتين فى خطابه ، ولكن إنصافا منا لرجل له احترامه يجب القول بأن تشمبرلن لم يشترك فى المناقشات وربما كان يجهل إذن أن ذلك المختصر الذى أعطى له غير صحيح . ولم يحتج أللنبي على ذلك بأى احتجاج . لقد سار فى طريقه دون أن يهتم بما قيل عنه . ولكن بقيت ذكرى ذ ك الخطاب عالقة بذهنه إلى أن أصبح أوستن تشمبرلن وزيرا للخارجية وربما ساعدت على سوء التفاهم الذى وقع لسوء الحظ بينهما .

تلك هى قصة الدور الخفى الذى لعبه أللنبي للحصول على تصريح سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر . وما زال بعض الاستعماريين الذين لا يغفرون يتكلمون عن أللنبي بحرارة كأنه الرجل الذى باع جواز المرور وضيع مركزنا فى مصر . ولو صح إتهام رجل بذلك لكان ملنر . ففى الواقع لم يوجد أى جواز للبيع مادام لم يكن هناك الجواز الذى يستولى عليه .

وكانت هناك نقطة أخيرة ربما استمات بيأس بعض الحمقى فى الدفاع عنها لولا أن حمتنا من ذلك حكمة أللنبي ، والآن هل يوجد شك فى أن حله كان هو الحل الصواب ؟ وفى أن أى حل آخر كالضم الفعلى أو الحكم العسكرى — بغض النظر عن مسائل الأخلاق والعدالة — كان شيئاً لا يمكن التفكير فيه مراعاة لطبيعة الأمة الانجليزية فى ذلك الوقت ومراعاة لعدم ثبات حكامها .

فما هو مدى الوقت الذى يسمح فيه الرأى العام بالحكم العسكرى فى مصر ، وما مدى الوقت الذى تؤيد فيه الحكومة ممثليها فى ذلك النوع من الحكم ؟ أو لم يجرب اللنبي من قبل بنفسه تذبذب رأى الحكومة فى سنة ١٩٢٠

ولم تكن عظمة الخدمة التى قدمها اللنبي لوطنه ولمصر فى تلك الأزمة فى تعرفه للحل الصواب — الأمر الذى كان فى مقدور أى شخص يعرف الحقائق والظروف — بقدر ما كانت فى شجاعته وتصميمه اللذين أظهرهما فى تبيين ذلك الصواب وفى حمل عبء الدفاع عنه فى وجه كل تلك المعارضة وذلك التشويه ، وكم يستحق مستشاروه اللذين عرضوا مناصبهم للضياع تضامنا معه من تقدير الدولة بعملهم ذاك ؟ .

ويمكن تصوير التناقض بين عمل مستر لويد جورج الذى كان أول من عارض مقترحات اللنبي ولكنه انتهى الى تأييدها فى شجاعة سياسية فائقة عند ما ظهرت له الحقائق ، وبين عمل لورد كرزون الذى أدرك من بادىء الأمر صواب الحل الذى عرضه اللنبي ولكن لم يجد فى نفسه الشجاعة الخلقية التى يؤيده بها فى وجه المعارضة . إن ذلك ليعطينا مقياسا لقيمة الرجلين فى الأزمة . ففى قاعة المجلس كما فى ميدان العمل ترجح كفة الشجاعة والأخلاق على مجرد المعرفة والمقدرة . وبعد هذه التجربة لم يعد أللنبي يحترم اللورد كرزون ولكنه بقى يعجب بلويد جورج ويحبه دائما .

ولقد حدث أن ألقى أللنبي — بعد ذلك بسنوات — خطابا فى مأدبة على أثر إحدى هجمات لويد جورج على لورد هيج والجنود . فلما انتهى قال له واحد من أصدقائه « لقد خيبت أمل الصحافة إذ جاءوا وفى ظنهم أن يسمعوا منك هجوما على لويد جورج » فأجابه أللنبي فى الحال « أهاجم لويد جورج ؟ إنى لأحب هذا الرجل لقد كسب هو الحرب . ولكن بحق السماء لا تقل له ذلك » .

الجزء الثاني

مصر ـ الاستقلال

مارس سنة ١٩٢٢ — يونيه سنة ١٩٢٥

أول النعم الأولى ، الاستقلال .

جيبون . ترجمته لنفسه

أكانت الناس يهديها الإله
أو تغويها أعلى الحناجر
أو كان الأسرع أن يموت المرء بالسيف
أو الأرخص أن يموت بالانتخاب

. . . .

الدولة المقدسة أو الملك المقدس
أو إرادة الناس المقدسة
فلا شأن لهذه مع شيء لا يحس
هيء المدافع ثم اقتل

روديارد كيبلنج

الفصل الخامس

١٩٢٢ : نشأة النظام الجديد فى مصر

تذكر دائما أن صنع سوار على قد المعصم أفضل
من عقد طويل يتعثر فوقه من يلبسه .
جوان جرانت . الفرعون المجنح

أنفق أللنبي الأعوام الثلاثة الأولى التى قضاها فى مصر معتمدا بريطانيا فى الوصول إلى سياسة فعالة يبنى على قواعدها علاقاتنا بمصر بعد الحرب ، وأنفق الثلاثة الأخرى فى الأشراف على بواكير النظام الجديد الذى أثمرته تلك السياسة .

ولقد كانت هذه فترة من التبرم وخيبة الأمل انتهت بجريمة حمقاء ، وأرجع البعض مسئوليتها إلى سعة الصدر التى ظهر بها أللنبي ، ثم ختمت باستقالته فى ظروف من سوء الفهم والإيلام .

إن أخطاء تلك الفترة ونكباتها هى أمام الجميع ليروها . ولقد أطفأت النجاح المكتسب والربح الحقيقى الذى ظفر به . لقد وضعت فى هذه السنوات قواعد الحياة السياسية لمصر الحديثة وكان لأللنبي دور كبير فى تشييدها وتأمينها وإنما أعقبها من حوادث ليبين أن تلك القواعد إنما وضعت الوضع الحسن الصحيح الحكيم بالنسبة لما تيسر يومها من المادة والعمل .

وبينما كان أللنبي فى تلك الفترة فى أعين مواطنيه فى مصر مدافعاً فاترا عن

حقوقهم وامتيازاتهم كان فى نظر البعض من حزب العمال فى وطنه حربيا متجبرا يسحق حريات المصريين . وكذلك المصريون الذين لم يكونوا فى حالة تسمح لهم بالشكران لواحدمن الانجليز أنحوا عليه لقسوته أكثر مما اعترفوا له بسماحته ، إلا من كانوا على مقربة منه — مصريين أو بريطانيين — فقد أدركوا وحدهم مدى ماحققه إصراره على غرضه فى أشد الظروف امتحانا للنفوس ومدى الحكمة التى كانت تظهر بها نصائحه وأحكامه . ولكن لحسن الحظ لم يحفل أللنبي سواء لقى الثناء أم لقى الذم ، لقد كرس نفسه لمشاكل النظام الجديد فى مصر دون التفكير فى شهرة يختص بها أو منفعة تعود عليه .

كانت المشكلات المباشرة بعد إعلان تصريح سنة ١٩٢٢ هى : وضع الدستور ، وإلغاء الاحكام العرفية التى استمر العمل بها زهاء ثمانى سنين ، وتعويض الموظفين الأجانب وخاصة البريطانيين الذين كانوا بسبيل من فقد وظائفهم وآمالهم فى ظل النظام الجديد ، ولقدحلت هذه المشكلات كلها بنجاح خلال الثمانية عشر شهراً التى تلت ذلك ، ولكن كان الهدف الأقصى هو إبرام اتفاقية مع مصر بشأن مسألة « التحفظات » : تأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر وحماية الأجانب والسودان . ولو قد أتيح لأللنبي أن يبقى فى مصر مدة أطول بعد ذلك لكان من المحتمل الوصول إلى حل لهذه المشكلات الصعبة منذ زمن بعيد ، وذلك لثقة المصريين به واحترامهم له واعتقادهم فى نزاهته . ولكن كما حدث انقضى منذ رحيله أكثر من عشر سنوات قبل أن تبرم مثل هذه المعاهدة بين بريطانيا العظمى ومصر .

« يعطى مرتين من يسرع بعطائه وينزل بقيمة هبته إلى نصفها من يتردد ويعطى على كره منه » . فلقد سمحت الستة الأسابيع الأولى من سنة ١٩٢٢ والتى انقضت بين عرض مقترحات أللنبي على مجلس الوزراء وبين قبولها — لبعض

الآثار التى ترتبت على نفى زغلول بأن تضمحل بالتدريج ، كما أتاحت الوقت للمتطرفين ليسمموا فيه العقلية المصرية ضد أى هبات يقدمها الانجليز ، ولقد ساعدتهم فى ذلك حوادث معينة . فقد فسرت المعاهدة التى أبرمت بين بريطانيا وإيرلندة فى نهاية سنة ١٩٢١ للدلالة على أن العنف والقتل كانا من أعظم الوسائل المؤثرة للظفر بالمغانم من بريطانيا العظمى ، كما بدا ضعف حكومة لويد جورج الظاهر فى بريطانيا نفسها نذيراً بسقوطها القريب ؛ ثم إن ما كان يرجى من حكومة العمال قد عُرف لمتطرفى المصريين عندما مر مستر رمزى مكدونالد — رئيس الوزراء المنتظر لمثل هذه الحكومة — بمصر قبيل عودة أللنبى بالتصريح . فقد أعلن مستر مكدونالد لبعض الزغلوليين المحليين الذين احتفوا به فى بور سعيد بأن أهالى انجلترا « سيتحققون سريعاً من أنها كانت تحكم حكما سيئا » « وبأن مصر بعدئذ ستتولى أمر نفسها » كذلك صرح لهم بالأمل فى سرعة رجوع زغلول .

وعلى ذلك فالسياسة السخية التى حصل عليها أللنبى بالتصريح قد قبلها المصريون إلى حد ما — على كره منهم وباعتبارها « دفعة » من الاستقلال التام . ولقد وجدت أمام الساخطين مواد كثيرة لاستعمالها فراحوا يتساءلون أى نوع من « الاستقلال » هذا الذى يمكن أن تتمتع به مصر بينما هى لاتزال تحت وطأة الأحكام العرفية يحكمها الجنود الأجانب ، وبينما زعيم الشعب المختار لا يزال فى المنفى ، وبينما الموظفون الأجانب لا يزالون ينفحون الماهيات الضخمة ويحتفظون بمعظم المراكز الرئيسية ثم لا يمكن إقصاؤهم فقط إلا بالتعويض الباهظ وبينما السودان وهو الجزء المتمم لمصر لا يزال تحت السيادة البريطانية ؟

وتاريخ مصر السياسى خلال السنوات الثلاث من سنة ١٩٢٢ إلى سنة

١٩٢٤ هو تاريخ صراع ثلاثى أطرافه الثلاثة الملك . والجماعة التى تضم معظم المثقفين المعتدلين من المصريين والتى يصح تسميتها بحزب الأحرار . ثم الحزب الشعبى الذى ينادى بزغلول رئيسا له . ويمكن القول بأن ألنبى إنما اتخذ لنفسه موقف الحكم يتدخل أقل تدخل مستطاع لكنه ينفخ فى صفارته بحزم عندما تقع أسوأ الأخطاء وأشدها وضوحا متجاهلا — شأن كل حكم نزيه — صياح الجماهير ونقدها عند كل قرار لا يحبونه .

أعلن فؤاد السلطان السابق ملكا على مصر فى ١٥ مارس ويبدو أن هذا الرقى فى اللقب قد حول من طموحه وزاد فى حبه للسيطرة فهو كسلطان لم يكن له سوى أثر ضئيل ولم يجتذب سوى انتباه يسير، أما وقد أصبح ملكا فقد أراد أن يحيي على قدر ما تسمح به الظروف الحديثة حكم جده محمد على أو والده الخديوى اسماعيل . وبذلك أصبح عاملا هاما فى السياسة المصرية وهو فائق المهارة كسياسى وكان من الفطنة بحيث أدرك قيمة الدعاية وكثيرا ما استعمل لذلك الصحافة، ولقد حاول دائما ان يرفع الى منصب الوزارة واحداً من أنصاره — أو اثنين — يكون على صلة بالسراى من وراء ظهر رئيس الوزراء ، فاذا لم يظفر حينئذ بما يشتهيه جهد فى العادة فى جعل مركز رئيس الوزراء هذا مركزاً مستحيلا .

وأما الحزب المعتدل والذى يمكن أن نسميهم بالأحرار فقد كان يضم أغلبية الأكفاء والأذكياء من المصريين وفيهم الكثيرون من طبقة الحكام السابقين من الأتراك ، وممثلهم الأول المهم عدلى باشا وكان نموذج السيد العظيم ، من أرومة عريقة ، له مظهر مؤثر وأخلاق مهذبة ، وطنى كامل النزاهة يتمتع باحترام عظيم لولا أن حظه من الشجاعة السياسية كان قليلا . فهو لا يستطيع

أن يواجه صعوبة من الصعوبات أو موقفاً من المواقف الكريهة ما دام في استطاعته أن يتفادى ذلك . ولقد أطلق عليه ألنبي بعد تجربته لتردده مرة أو مرتين اسم « القصبة المرضوضة » ولم يعد يثق به إلا قليلا ، أما ثروت باشا — زميل عدلى — وأول رئيس للوزراء بعد التصريح فهو أشجع من عدلى كما كان ذا كفاءات وخبرة ممتازة فائقة ولو استطاع أن يحظى بمثل الاحترام والأتباع الذين حظى بهم عدلى لربما كان الزعيم الذى احتاجته مصر فى ذلك المعترك . ولكنه حتى كما كان ، بذل الكثير فى سبيل وضع أسس المستقبل لمصر ، رغم كراهية الملك له ورغم الدسائس التى حيكت ضده .

أما زغلول وحزبه الذى يعاونه — الوفد — فكانوا يمثلون من غير شك الرأى المصرى العام لولا أنه وتابعيه كانوا عامل هدم لا عامل بناء ولقد سبق لنا ذكر عجالة عن خلق زغلول ولكن على الرغم من اتصافه بالذكاء والاعتدال قد ارغمته الظروف على أن يصبح زعيما للجهلة والغوغاء من غير أن تكون له القوة والحكمة الكافيتان لقيادتها .

وكان يحوم وراء ذلك كله شبح الشخصية الملغزة ، شخصية الخديوى السابق عباس حلمى — ابن أخى الملك فؤاد — الذى خلع فى سنة ١٩١٤ فى مستهل الحرب العالمية والذى عاش منفياً فى أوربا . كان أثره فى السياسة المصرية ضئيلا ولكن كان لدسائسه — الحقيقية أو الوهمية — أثر ملحوظ ، وفى الواقع كان الخديوى السابق آخر شخص يمكن لبريطانيا العظمى أن تعيده إلى العرش أو حتى تسمح له بمجرد العودة إلى مصر ، فى حين أنه هو لم يكن له أى حظ من التأييد العام فى مصر نفسها ، ومع ذلك فقد كان يحلو لبعض المصريين — فى الوقت الذى وجد فيه آخرون فائدة سياسية أو مالية — الدس الرفيق مع

الخديوى المعزول ، وكانت تسره هو هذه الدسائس — ذاتها كما كان يستغل مشاغباته تلك على أمل الحصول بها على حل مالى أفضل لمطالبه من الحكومة المصرية .

كان منطق الحوادث التى تلت مباشرة عودة أللنبي بالتصريح إلى مصر هو ، عرضه على السلطان ، تأليف وزارة برياسة ثروت باشا ، وموافقة مجلس العموم البريطانى على المشروع فى ١٤ مارس بعد مناقشة دامت سبع ساعات بينت أول ما بينت — الجهل المطبق لحقيقة الحال فى مصر ، ثم إعلان فؤاد ملكا على مصر فى اليوم الذى يليه ، ومذكرة من الحكومة البريطانية لجميع الدول بانتهاء الحماية على مصر ، تضمنت الفقرة التالية :

« إن انتهاء الحماية على مصر لا يتضمن — مع ذلك — أى تغيير فى الوضع الراهن بالنسبة لمركز الدول الأخرى فى مصر نفسها . إن خير مصر ووحدتها أمران ضروريان لحفظ السلام ولسلامة الامبراطورية البريطانية التى ستحافظ لذلك دائما على العلاقات الخاصة بينها وبين مصر باعتبارها مصلحة ضرورية لبريطانيا طالما اعترفت بها الحكومات الأخرى . وقد حددت هذه العلاقات الخاصة فى التصريح الذى يعترف بمصر دولة مستقلة ذات حكومة ملكية ولقد بسطتها حكومة جلالة الملك على أنها أمور تتضمن حقوق ومصالح الامبراطورية البريطانية تضمنا حيويا ولن تسمح بالسؤال عنها أو ببحثها لأية دولة أخرى ويترتب على هذا المبدأ أن أية محاولة من دولة أخرى للتدخل فى شئون مصر سيعتبر عملا عدائيا كما سيعتبر أى عدوان على أرض مصر عملا يجب دفعه بكل الوسائل التى تحت أيديهم » .

وإن ذلك فى الحق لمبدأ « مونروى » لمصر .

وبعد ذلك غادر اللنبي مصر ستة أسابيع قضاها متجولا فى أنحاء السودان وغرضه بذلك أن يدع الحكومة الجديدة لتوطد أقدامها واتعد الدستور والإجراءات الضرورية الأخرى . ولكنه ما كان يعود فى أوائل مايو حتى أطلت برأسها الآلام التى كان يعانيها ذلك النظام الجديد . وهذه هى العلل الثلاث التى تحتم على اللنبي أن يوجد لها العلاج مدة العامين التاليين أو ما يقرب من ذلك : الهياج الزائد بسبب السودان ؛ وجرائم جماعة من السفاحين ضد الانجليز فى القاهرة .

وأصبحت مسألة السودان فى تلك الفترة أقوى سلاح للتهييج ضد بريطانيا ولقد استغل باستمرار وبسوء نية كشكوى من شكاوى المصريين حتى أدى ذلك إلى قيام الاضطرابات فى السودان نفسه كما أدى إلى الجريمة التى نفد على أثرها صبر بريطانيا ، ولكى نفهم عناصر الشحناء التى هيجت طبقات المصريين وأثارت شغبها يجب أن نذكر نبذة عن تاريخ السودان وأحواله . فالفلاحون لم يعنهم إلا تأمين مياه النيل ، شريان الحياة فى مصر ، وقليلا ما اهتموا بمن الذى يحكم السودان طالما لم يمنع ظلم ما من جريان النهر . أما عند طبقة المحترفين ـ المحامين والموظفين المدنيين والكتبة ـ فكان امتداد حكم مصر للسودان معناه كثرة الأشغال لهم ، بينما كان إطلاق اسم مصر على السودان وازدياد قوتها فيه ، فى نظر الملك والطبقة العليا مسألة من مسائل الكرامة ، على حين أتاحت مسألة السودان هذه للمهيج المحترف فرصا لا نظير لها لثلب الخيانة البريطانية . وأما البريطانيون أنفسهم فعلاوة على استيلائهم القوى القائم على الكرامة والمصالح كانوا مدفوعين فى الحقيقة بدافع حكم السودانيين حكما صالحا وكانوا يحسون أن هذا الحكم أضمن فى أيديهم مما لو كان فى أيدى المصريين .

ولا تجمع سكان وادى النيل الأعلى بأهالى الدلتا قرابة جنسية ما وإنما الصلة التى تربطهم هى مجرى النهر العظيم إذ يشتركون جميعا فى مياهه. وهذا هو تاريخ ضم السودان لمصر قبل سنة ١٩٢٢ بمائة عام : أرسل محمد على بطل مصر الوطنى، وكان ألبانيا، حملة إلى السودان سنة ١٨٢٠ طواه على أثرها فى سلطانه ثم احتفظت مصر به فى الستين عاما التالية، ولقد أظهرت من جانبها ميلا ضعيفا لحكم أهله حكما صالحا حيث سمحت لتجارة الرقيق بالرواج من غير حائل ما، كما استغلت أراضيه استغلال الإهمال حتى أدت ستون عاما من سوء الحكم فيه إلى ثورة المهدى وذبح الجيش المصرى وبعثة غوردن لإخلاء السودان ثم إلى موته فى الخرطوم. ولكن أعادت فتح السودان للمرة الثانية قوة إنجليزية مصرية بقيادة كتشنر فوجدته قدعانى من استبدادالمهدى أضعاف ما عاناه من سوء الإدارة المصرية ولقد قدمت بريطانيا القيادة فى هذه القوة وكذلك الجزء الأكبر من الجنود بينما قامت مصر بالنصيب الأوفى من النفقات أى نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات من مجموع المبالغ التى أنفقت والتى كانت تبلغ ٢ مليونا.

ولقد أثار التصرف فى مسألة السودان بعد رفض مطالبة فرنسا بجزء منه فى حادثة فاشودة معضلة دستورية محرجة. فهل كان السودان مجرد مقاطعة مصرية ثائرة أعيد احتلالها وبالتالى فهى ملك لخديوى مصر باعتباره وارثا له من محمد على الفاتح الأول؟ أم قد محى اسم مصر فى الستين عاما التى استمر فيها حكم المهدى؟ وإذن أصبح الآن هذا البلد الضخم جائزة حرب يجب أن يقتسمها غزاته الذين ظفروا به؟ ثم أى حق لسلطان تركيا عليه وهو السيد الاسمى لمصر؟.

ليس من طبيعة البريطانيين أن يعالجوا مشكلة من هـــذا القبيل علاجا منطقيا أو مباشراً وها هو مركزهم فى مصر شاذ لم يحدد مطلقاً ومن المؤكد أن شرعية مركزهم فى السودان ستكون أكثر صعوبة فى تنظيمها . لذلك طُلب الى لورد كرومر ممثل بريطانيا فى مصر والحاكم الحقيقى لها — أن يجد الحل لهذه المشكلة وكان غرض الحكومة البريطانية الأكيد — وكذلك الشعب البريطانى على قدر عنايته بمسألة السودان — هو أنه يجب أن يعطى هـــذا الاقليم المضطرب ، الهدوء وحسن الادارة ، — وخاصة بعد أن مضى عليه نحو ثلاثة أرباع قرن من سوء الحكم ، وكانت الحلول المنطقية الأخرى واحدا من أمرين . إما أن يضم السودان ضما صريحاً إلى بريطانيا العظمى، وإما أن يعترف به جزءا من مصر على أن يحكمه موظفون بريطانيون تحت شعار مصرى . كما هى الحال فى مصر ، أما كرومر فقد اختار على عمد منه اتفاقا غير منطق وأسماه « بالاتفاقية » . ولقد استُهلت بمطالبة بريطانيا العظمى بنصيبها « بحق الغزو » . فى الوقت الذى عرّف فيه السودان فى مادتها الأولى « بأن مصر قد فقدته مؤقتا » وصعب أن تتفق إحدى الجملتين مع الأخرى . أما النتيجة العملية لهذه الاتفاقية فلم تختلف قط عن ضم السودان لانجلترا إلا فى أن مصر دفعت بسخاء نظير تلقيبها بلقب الشريك . ثم حكم السودان حاكم عام اقترحت اسمه بريطانيا العظمى وعينه خديوى مصر وراحت مصر ترسل جزءا من الحامية وتسد عجز الميزانية البالغة نحو مليونين من الجنيهات فى العام .

ولا يمكن أن يبرر هذه الاتفاقية — على عظم فائدتها لبريطانيا العظمى — إلا العمل المخلص المجرد من الأنانية الذى تمكن به الموظفون البريطانيون من جلب السلام والرخاء لذلك البلد ، على أنه طالما بقيت مصر نفسها طفلة تتعلم

السير فسينظر إلى الحكم البريطانى فى السودان نظرة الرضا كما سيرمى بالقليل من النقد وأما إذ نمت روح الوطنية المصرية فقد بات من الطبيعى أن توضع مثل هذه الاتفاقية التي قامت من جانب واحد موضع البحث من جديد . ومع ذلك فلم يستخدم الساخطون مسألة السودان بوجه خاص لإلهاب المشاعر ضد بريطانيا العظمى إلا بعد أن أزال تصريح سنة ١٩٢٢ كثيرا من أسباب التذمر السابقة ومن بعدها لم تضيع فرصة لاتهامها بسوء النية ولإثارة سوء الظن بها كما حدث مثلا حين فسرت الصحافة المصرية زيارة أللنبي للسودان بأنها مقدمة لضمه لبريطانيا . ثم انتهى الأمر فى النهاية بهذا السلاح أن كثر استعماله وأن أدى إلى تلك الجريمة الكبرى والنكبة الفادحة .

وكانت المضايقة الثانية لأللنبي هى حملة القتل التى وجهت ضد البريطانيين فقد وقع فى خلال سنة ١٩٢٢ أثنا عشر هجوما على الإنجليز فى القاهرة ، قتل بسببها أربعة وجرح تسعة ، وذلك إلى قتل اثنين من كبار المصريين . ولقد كانت حوادث القتل هذه كما ظهر بعد ذلك من عمل عصابة صغيرة يحركها قليل من المتعصبين الجسنى التثقيف . وقام بحوادث القتل التى نفذت بعض ضعاف العقول من الطلبة من طبقة الأفندية وعدد من السفاحين المأجورين من المجرمين المحترفين . وربما كانت أغراض العصابة ، فيما يظن إما تهديد البريطانيين وإما دفعهم إلى الانتقام . ولكن لم يتخير هؤلاء الضحايا لأهميتهم هم أو لعداء عرفوا به لمصر وإنما لمجرد توفر الأمن فى اللحظة التى يتم فيها قتلهم فما أيسر أن تدرس الحركات اليومية لبعض الموظفين أو الضباط الإنجليز وأن يكتشف المكان الأمين الذى يمرون به يوميا فى إحدى الساعات المعينة

وأن يتعقبه فى الظلام أو حتى فى النهار رجل ثم يصيبه من الخلف، وساعدهم على ذلك كره الرجل الانجليزى لحمل السلاح ولاتخاذ احتياط من الاحتياطات وبذلك لم يخاطروا باحتمال مقاومة من الضحية لأنها عزلاء وتصاب من الخلف ولا من رجال البوليس لأنهم يهربون قبل أن يصل البوليس، ولا من الجمهور لأنهم يتخيرون اللحظة التى لا يمر فيها واحد من الانجليز أو الأجانب المحترمين بل لقد ضرب أحد ضحايا البريطانيين بالنار فى مكان عام وأمام بعض الحوانيت فصرح أصحابها بأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئا، ثم عثر فيما بعد على شهود الحادث الحقيقيين بمحض الصدفة. وهذا الموقف الذى وقفه الجمهور المصرى كان العامل الرئيسى الذى منع من تقديم هذه العصابة إلى القضاء بسرعة، إذ لم يعاونوا البوليس أية معاونة لا بمحاولة القبض على القتله وقت حدوث الجريمة ولا بإعطاء المعلومات فيما بعد. ولم يكن ذلك تأييدا منهم لأولئك القتلة ولكن لخوفهم من الإرهاب والانتقام، وليس ذلك اعتباطا، إذ هم حاولوا فعلا فى بعض الأحيان قتل من قدموا ضدهم المعلومات أو عاونوا عليهم رجال البوليس.

ولو أن عدد جرائم القتل كان صغيرا الا أنها أثارت شعور الغضب وعدم الاطمئنان فى نفوس الجالية البريطانية، إذ أضجرها عجز الجهات المسئولة عن وضع حد لهذه الجرائم أو القبض على القتلة حتى لقد أيد بعض متطرفيها ضرورة القيام بأعمال انتقامية واجراءات شديدة أخرى، وكادوا جميعا يتفقون على أن أساليب أللنبى لم تكن لها القوة الكافية: ولكنه احتفظ برزانته ورفض أن يندفع فى أعمال العنف الغير مجدى. ربما كان قد تذكر فاجعة دنشواى المشئومة التى وقعت قبل ذلك بستة عشر عاماً عند ما وصمت القسوة المفرطة

السمعة البريطانية فى مصر وصمة خطيرة . وأمر باتخاذ كل وسائل الحيطة الممكنة فحرس الجنود البريطانيون الطرقات وزيد عدد رجال البوليس وحمل البريطانيون الأسلحة ، ومع ذلك فقد دلت كل الأخبار التى حصل عليها على أن المصريين — فى معظمهم — لم يقروا القتلة وأنه من المحتمل ألا يكون لأعمال الانتقام ذات الصبغة العامة أثر ما . بل سيؤدى القبض فقط على تلك العصابة الى زوال مفعولها السام ، ولم يأت الوعد بالمكافأة التى ارتفعت إلى ٥ آلاف جنيه لمن يدلى بالمعلومات بنتيجة ما . واقترح مكتب الأجانب الاستيلاء على بعض مصادر الدخل لتعويض الضحايا فى هذه الاعتداءات ، فأجاب على ذلك اللنبي بان هذا لن يزيد فى طمأنينة الانجليز بل سيقضى على كل فرصة لحسن التفاهم مع المصريين . بينما دفع التعويض السخى من قبل لتلك الضحايا . ثم اقتفت جماعة خاصة عينها اللنبي برئاسة موظف انجليزى منتق أثر تلك العصابة حتى أماطت عنها اللثام فى النهاية كما سيأتى بعد . ولكن ظلت هذه الاعتداءات يومئذ مصدرا مستمرا للقلق والغيظ .

ثالثا : الملك فؤاد — ولسوف تسجل المبارزات التى وقعت بين اللنبي وبين ذلك الملك الحاذق الطموح حول الدستور والأمور الأخرى فى حينها من سياق القصة ، كان ينطوى كل من الطرفين المتنازعين على الميل والاحترام للآخر . وكانت لهما بين الجولات مناقشات تغلب عليها المودة فى مواضيع يشتركان فى الشغف بها كالأديان الانسانية المتعددة ، ولقد قدر أللنبي ذكاء الملك كما احترم الملك وفاء أللنبي .

ولقد بدأت الجمعية التى اجتمعت لاصدار الدستور برئاسة رشدى باشا — وهو رئيس الوزراء مدة الحرب — عملها فى ابريل واستمرت فيه حتى

نهاية الخريف . وأثارت مسألة السودان فى المرحلة الأولى جدالا حادا مع الحكومة البريطانية . فلقد عرّف السودان فى المادة الأولى بأنه جزء متمم لمصر ووضع ملك مصر على أن يكون كذلك ملكا للسودان . ومن الصعب أن ينتظر من الحكومة البريطانية أن تسمح بهذه المحاوله لتغيير اتفاقية سنة ١٨٩٩ وبايجاد سابقة حكم قبل درس هذا التحفظ وبذلك أصر أللنبي على أن تستبعد هذه المواد فى الحال . فراح الوطنيون المصريون يصبون طوفاناً من غضبهم بالخطب والمقالات ولكن ظل اللنبي والحكومة البريطانية ثابتين . ثم رأى الملك فؤاد الفرصة سانحة ليجتذب اليه حب الشعب بتأييد وجهة النظر الوطنية .

ولقد اتخذت الجمعية من النظام البلجيكى أنموذجا لها فصاغت الدستور على أسس حرة . فاتفق على أن ينشأ مجلس نواب منتخب — على الأقل من الناحية النظرية — على قاعدة شعبية واسعة ، ومجلس شيوخ ينتخب بعضه ويعين بعضه الآخر . وعلى أن يوضع الملك فى مركز الملك الدستورى الدقيق

واستقال ثروت فى نهاية نوفبر بسبب مشكلة السودان .

وفى نفس هذه اللحظة العصيبة أيضا سحب عدلى — الجبان الذى لم يرد أن يتحمل نصيبه من المقت بالموافقة على تعريف السودان ذلك التعريف الذى أصر البريطانيون عليه وربما قد روعه قتل اثنين من زعماء الأحرار — سحب تأييد حزبه لثروت ، ثم استدعى الملك توفيق نسيم ليحل محله فى الوزارة .

لم يكن رئيس الوزراء الجديد على كفاءة ممتازة لكنه كان أميناً مجداً يخضع لتأثير القصر ويميل إلى الاستجابة للرغبات الملكية .

وإن مانالە عمل ثروت من الثقة لأقل مما كان يستحقه . فلقد واجه بنفسه الواجبات الصعبة لافتتاح النظام الجديد بشجاعة وعزم، ولم يكن عليه فقط أن يحل بعض المشكلات الشائكة مع الإنجليز كمواد السودان ، وتعويض الموظفين الاجانب والأمر بحماية الضباط ليتيسر بذلك إلغاء الأحكام العرفية — وفى كل منها كان معرضاً لأن يجلب على نفسه مقت أبناء وطنه — بل كان عليه أيضاً أن يفتتح عهداً جديداً من الحكم ، وأن يعوّد على واجبات الوظيفة طبقة تكاد أن تكون عديمة المران والخبرة فى تحمل المسئولية واستعمالها بمفردها . ولم يدرك واحد أبداً — ولا حتى من تتبعوا تاريخ مصر الحديثة — مدى التغير الذى حدث — فالطبقة الحاكمة فى مصر قبل الاحتلال البريطانى كانت كلها من الوجهة العملية من أصل تركى ثم فقدت بعد ذلك هذه الطبقة فى خلال الأربعين عاماً من الحكم البريطانى روح السيادة فيها وأخذت تتجه إلى نواح أخرى من النشاط . أما الوطنيون المصريون الذين يتوقون الآن إلى توجيه شئون بلادهم فكانت تنقصهم — غالباً — الشجاعة الأدبية الضرورية كما تنقصهم روح المسئولية إذ طالما ألفوا الاعتماد على النصيحة البريطانية فى كل إشكال يواجهونه أما الآن فقد أحسوا بالضياع عندما افتقدوا هذه النصيحة . ولقد كان من سياسة أللنبى — كما ذكرنا آنفاً — أن يضطرهم إلى مواجهة مشاكلهم وأخطارهم بأنفسهم حتى لقد خاطر بنفسه لكى ينفذ سياسته هذه .

ولم يكن الزمن بالمناسب لمثل هذه التجربة فلقد انهكت سنوات الحرب الأربعة والاضطراب الذى أعقبها فى السنوات الثلاث التالية أداة الحكومة التى نقل منها المستشارون الاجانب الآن بسرعة أملاها الشعور الوطنى أكثر

بما أملتها الحكمة الإدارية . وقدمت الحوادث التي وقعت فى تركيا فى خريف تلك السنة قوة دافعة أخرى الى جانب الوطنية والرغبة فى إنهاء الأثر البريطانى فلقد هزمت اليونان فى أغسطس وسبتمبر هزيمة ساحقة طردوا على أثرها من الأناضول فهلل المصريون لهذا الحدث باعتباره نصراً للاسلام على على النصرانية وباعتباره هزيمة للانجليز . ولكن أدى ثبات الانجليز فى خانق الى استعادة كرامتهم كما أيدت موقفنا الحربى مهارة سياستنا فى نوفمبر بمؤتمر لوزان الذى أقيم لتنظيم معاهدة السلام مع تركيا . ولقد أثارت مسألة تمثيل مصر فى هذا المؤتمر كثيراً من المباحثات السياسية وكانت لاتزال بغير حل عند ماسقطت وزارة ثروت.

لقد زخر هذا العام بالحوادث الهامة حتى لم يستطع أللنبي السفر إلى انجلترا فى إجازته، ثم ماتت فى الخريف أمه ـــ التى كان لخلقها أثر كبير فى تكوين خلقه هو ـــ والتى كان يحبها كثيراً ـــ وهى فى الثامنة والتسعين . ولقد رد أللنبي على أحد أصدقائه بهذه الكتابة التى تميزه :

« تقبل تشكراتى الكثيرة على خطابك الحنون الرجيم بمناسبة وفاة والدتى لقد ماتت بعد أن بلغت أقصى العمر والشرف وقد احتفظت بكامل قواها العقلية وشغفها التام بكل شيء حتى آخر لحظة تقريبا . لقد استبقتنى مصر هنا هذا الخريف لكنى رأيتها فى الربيع الماضى وليس لى إذن ما آسف عليه . ولقد قابلتها ما بل فى الشهر الماضى وأسلمتنى آخر رسائلها » .

ولقد اكتشف هوارد كارتر الذى كان يموله لورد كارنارفون ذلك الاكتشاف التاريخى لقبر توت عنخ آمون فى نوفمبر وكان أللنبي واحدا من القلة المحظوظة التى فتح القبر فى حضرتها وبذلك كان من الأوائل الذين

شاهدوا الكنز العجيب الذى كن مذخوراً فيه .

ثم انتهت سنة ١٩٢٢ هذه الحافلة بالأحداث بمذكرة تهديدية وبجريمة وحشية حمقاء . إذ ضرب بالرصاص فى ٢٧ ديسمبر الدكتور روبسون المحاضر بمدرسة الحقوق والذى كان معروفا — على وجه الخصوص — بشدة صداقته للمصريين . قتل فى وضح النهار بينما كان عائدا على دراجته من عمله الى بيته . ولقد أثارت هذه الجريمة أعمق الشعور بالغضب فى نفوس الجالية البريطانية وكان معظمه موجها ضد ضعف أللنبي المزعوم .

الفصل السادس

١٩٢٣ — سنة تقدم

الكلاب تنبح ولـكن القافلة تسير

مثل شرقى

ابتدأت سنة ١٩٢٣ التى كان يجب أن تـكون سنة مثمرة فى تاريخ التقدم السياسى بظروف سيئة. فكانت مشاكل أللنبي الثلاث لا تزال قائمة، إذلم تغير حتى الآن المواد الخاصة بالسودان تغييراً ملائما، كما ظل مقتل روبسون مخيما على العلاقات بين المصريين والبريطانيين من ناحية وبين الجالية البريطانية ودار المعتمد البريطانى من الناحية الأخرى.

ثم عقد اجتماع للبريطانيين عظيم فى فندق شبرد بالقاهرة فى ٢ يناير ليحتجوا فيه على استمرار حملة الاغتيالات ولطلب اتخاذ إجراءات قوية للقمع، بينما أعلن أللنبي لرئيس الوزراء أن الأحكام العرفية ان تلغى طالما استمرت تلك الاعتداءات، وأنه لا بد من دفع غرامة لأرملة القتيل، وأنه يجب تقوية الإجراءات البوليسية، وأن دوريات الفرسان البريطانية ستعاود حراسة الشوارع فى نفس الوقت.

ثم قفزت مسألة السودان إلى المقدمة فى أوائل فبراير. فلما وجد اللنبي

تصميم الملك فؤاد على ان يسمى ملك السودان اضطر إلى طلب الاجتماع به ليصر امامه على وجوب مراعاة وجهة النظر البريطانية ثم وقع الملك الوثيقة التي قدمها اللنبي . وبعدذلك بيومين قدم توفيق نسيم استقالته عند ما ادرك ان الصيغة الخاصة بالملك فى الدستور لن تمر بغير اعتراض . ولذلك أنبه مولاه . واعتبره جبانا .

واستمرت البلاد بعد ذلك خمسة أسابيع بغير حكومة . وظهر أولا أن عدلى سيشكل الوزارة ، لكنه جعل إلغاء الأحكام العرفية شرطا لقبوله الحكم . ودلت الاعتداءات المتعددة بالقنابل على الجنود البريطانيين على أنه لا يمكن إلغاء الأحكام العرفية فى تلك اللحظة . ولما كان عدلى لا يرغب كعادته فى مواجهة المصاعب وغضب الشعب فقد رفض العمل . وبذلك ترك منصب رئيس الوزراء الذى لم يجلب فيما ظهر نفعا لصاحبه ليتولاه رجل غيره معروف نسبيا هو يحي باشا ابراهيم . كانت تنقصه مقدرة ثروت ونفوذ عدلى لكنه كان وطنيا نزيها كما كان غير عادى فى شجاعته وعزمه .

ومع أنه تولى منصبه فى منتصف مارس إلا أنه نجح فى إصدار الدستور الجديد بصيغته الأصليه بعد ذلك بشهر . ولقد شاهدهذا الشهر صراعا مستمرا لعب فيه أللنبي دورا عظيما . فلقد أمكن فى عهد وزارة نسيم تغيير مسودة الدستور تغييرات عدة زاد بها الملك من سلطته وامتيازاته ، وسرعان ماتجلى أن رئيس الوزراء الجديد لن يقدر على إرجاع النص الأصلى للدستور مالم يلق المعاونة فى سبيل ذلك . ومن هنا صمم أللنبي على أن يقف بنفوذه إلى جانب الشعب .

وكانت الخطوة الثانية إلغاء الأحكام العرفية . ولم تكن بالمسالة الهينة كما قد يظن ، إذ لا بد من إصدار قانون يمنع الرجوع فيما سبق اتخاذ قرار فيه فى ظل الأحكام العرفية ، وكان من الضرورى كذلك أن تسد بعض الثغرات فى التشريع المصرى لتنظيم بعض المواد التى كان يعالجها القانون العرفى ، كالاحتفاظ بالسلطة فى تنظيم الاجتماعات العامة واتخاذ بعض الاجراءات لضمان سلامة الدولة إذا طرأ ما يدعو الى ذلك فى الحال . ولقد صدر القانون بمنع الاجراءات التى تتعرض للمسائل السابق اتخاذ قرار فيها فى ظل الأحكام العرفية فى ٥ يولية وصدر فى نفس الوقت من القائد العام إعلان بإنهاء القانون العرفى الذى استمر العمل به منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ . ولكن على الرغم من اتهام القانون العرفى بالصرامة والاستبداد فإنه لم يتدخل من الناحية العملية فى حياة الموظفين العاديين إلا تدخلا طفيفا لا يعتد به . ولقد حدث أن طبق هذا القانون فى بعض الأحوال الغريبة ، فمثلا نظمت بأمر منه الإيجارات بين المستأجرين وبين ملاك الأراضى ، كما منع به الاستغلال ، كذلك اضطر الأجانب بأمر آخر إلى دفع بعض الضرائب المصرية التى لولا القانون العرفى لعوفوا منها بسبب الامتيازات . بل إن أللنبي قدم الميزانية المصرية مرة بأمر عسكرى حين لم تكن هناك وزارة قائمة لتفعل ذلك . وانحصر فى النهاية تطبيقه عمليا على التمكن به من محاكمة المعتدين على رجال الجيش أمام المجالس العسكرية . إلا أن الغاءه من غير شك يعتبر خطوة مهمة فى تقدم مصر نحو الاستقلال .

أما الخطوة الثالثة فكانت إعداد قائمة التعويضات التى ستدفع للموظفين الأجانب — ونصفهم من البريطانيين — الذين سيحل محلهم موظفون من

المصريين . ولقد قدرت هذه التعويضات — التى كانت بالطبع ذات أهمية عظيمة عند الجالية البريطانية — بسخاء كبير قد يكلف الخزانة المصرية من ٦ الى ٧ مليون من الجنيهات . وربما ظهر ذلك ثمناً فاحشاً للتحرر من المساعدة الأجنبية ، وكذلك انتقدته الصحافة المصرية . ومع هذا فلم تكن تلك الشروط مرهقة بحال ما حيث خدم المستشارون الاجانب مصر بأمانة وجد على أن ماتبقى فى الخزانة المصرية من الاحتياطى الذى بلغ ١٨ مليوناً فى آخر سنة ٢٣ / ٢٤ المالية ليثبت أن مصر لم تنتهب .

والآن تحققت أغراض اللنبي المباشرة : فقد صدر الدستور فى الصيغة المقبولة ، وألغى القانون العرفى ، وحلت مسألة تعويض الموظفين الأجانب حلا مرضياً . وبدا التوقف فى حملة القتل فى تلك الفترة فقد قبض على ١٤ طالباً قدموا للمحاكمة فى يونيه وأدين من بينهم ١٣ أعدم ٣ منهم فيما بعد .

وبدا مستقبل مصر وكأنه رهن يديها . فلسوف تبحث مسألة التحفظات — عند ماينتخب البرلمان — ويمكن بعدئذ الوصول إلى تسوية نهائية ودية للعلاقات المصرية البريطانية ، ثم سافر أللنبى بالأجازة إلى وطنه إلى أن تحدث هذه الانتخابات وبقى بانجلترا من أغسطس حتى نهاية اكتوبر منفقاً معظم وقته فى صيد السمك كعادته إذ كان ذلك هوايته المفضلة .

ولقد حان الوقت للعودة الى المصرى الذى كان ، ولا بد أن يكون ، المعارض الأول لأللنبى فى سبيل الوصول إلى تسوية للعلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر ، ولنتذكر انه قبض على سعد زغلول فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢١

لتحريضه على الإخلال بالنظام وانه اعتقل منذ ذلك فى عدن ، ثم حمل من هناك على ظهر الباخرة كليماتيس Clematis فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ — أى يوم التصريح باستقلال مصر — وأبحر به إلى جزائر سيشل Seychelles فى اليوم التالى . ولقد كان هذا النقل مقررا قبل ذلك ببعض الوقت ، وكان قد اختير ميعاده بمحض المصادفه . ولكن زغلول اشتكى من اختيار ذلك اليوم بالذات ميعادا لنفيه إلى جزيرة غير صحية بالقرب من خط الاستواء ، ولكن لم يكن فى الواقع جوها غير صحى ولو أنه كان شديد الرطوبة بالنسبة لزغلول إذ كان يشكو من رئتيه . وبذلك نقل إلى جبل طارق فى أوائل خريف سنة ١٩٢٢ . وظل هناك حتى نهاية مارس سنة ١٩٢٣ عند ما أطلق سراحه ، حيث لم يبق ما يمنع من عودته إلى مصر بعد أن ألغى القانون العرفى . وفى ١٨ سبتمبر نزل إلى البر فى الاسكندرية بعد أن نفى حوالى العامين . ولقد حظى — كما كان طبيعيا — بترحيب صاخب من عامة الشعب فى حين أعلن كثير من قادة المصريين عن تأييدهم له أمام الجمهور وأن كانوا يستشعرون الخوف من ناحيته فى سرائرهم . وظهر زغلول معتدلا أول الأمر فى تصريحاته ، لا يتحدث الا عن وحدة الأمة ، ولكن ما أسرع ما تغيرت حاله ؛ إذ طفق ينقد كل شىء حدث فى فترة غيابه ، وبدا همه الوحيد أن يمحو كل تقدم عاد فيه الفضل إلى شخص سواه ، واتضح مرة ثانية غروره وعناده ، ثم مرض فى اكتوبر واعتكف شهرين فى مرضه وكان حزبه فى هذه الأثناء قد نجح فى الانتخابات الأولى نجاحا ساحقا .

ثم عاد أللنبى فى أوائل نوفبر إلى مصر ليجد الموقف السياسى وقد غدا معقداً .

فقد اتضح أن يحيا باشا رئيس الوزراة رجل متعب ، ووزارته عاجزة ، بينما فسدت إدارة البلاد بعد أن أبعد عنها المستشارون الأجانب . وانتهز الملك ضعف الوزارة ليزيد من نفوذه حتى أصبح الآن يتمتع بالسلطان الهائل وبات الخلاف بينه وبين زغلول محتمل الوقوع . إن كل شيء في أواخر سنة ١٩٢٣ كان يدعو إلى الكثير من التفكير والقلق . ومع ذلك فكان يبدو على حملة القتل أنها توقفت .

الفصل السابع

١٩٢٤ : عام زغلول

— نصر ، كارثة ، أفول —

كانت سنة ١٩٢٤ فى مصر عام زغلول ، فلقد طلعت عليه وهو سيد مصر الأعلى لو استثنينا القوة الساهرة لبريطانيا العظمى وراء الموقف . وكان فى اعتقاده أن يستطيع شل هذه القوة بمفاوضاته مع حكومة العمال التى تألفت فى انجلترا منذ عهد قريب ، ولكن أظهره تصريف العام فى قدرته الحقة ديماجوجيا له القوة فى إلهاب الجماهير دون الشجاعة أو الحكمة فى قيادتها ، وحاكما غيوراً بغير الحنكة السياسية أو الإدارية ، ومفاوضاً ظنانا ضيق الأفق لا كفاءة عنده فى التفاهم . ثم عجلت بسقوطه — الذى لم يكن بد من حدوثه بسبب هذه العيوب إن عاجلا وإن آجلا — آخر العام جريمة يعتبر فشله فى قيادة أنصاره مسئولا عنها إلى حد كبير . وانتهى العام بالتخلص منه — فى الواقع — كشخصية رئيسية فى محيط السياسة المصرية كما سبق له ذلك مدة طويلة ولو بقى اسمه بعد ذلك يحتفظ بتأثيره فى الشعب . لقد وضعت أول محاولة للحكم الوطنى فى مصر منذ آلاف السنين فى الكفة فشالت به .

ابتدأ العام ولا تزال وزارة يحيا فى الحكم ولو أنها خضعت — تماما — لمشيئة الملك فؤاد . ولما أدرك بفطنته أن انتصار الزغلوليين فى الانتخابات أمر لا مفر منه راح يعلن عن مجاملته للوفد ، ومع ذلك فقد كان يؤمل فى

خلق معارضة قوية من أصحاب الأملاك ربما تتألف منها نواة حزب ملكي في يوم ما . كان يوم ١٢ يناير اليوم المحدد لأول انتخابات لبرلمان مصر الجديد فسافر اللنبي فى ٧ يناير برحلة إلى السودان ظناً منه أن الحكمة تقتضيه التغيب فى أثنائها وترك مهام دار المعتمد يتولاها الوزير كر Kerr مدة غيابه .

ولو أنه لم يكن هناك شك أبدا فى نتيجة الانتخابات الا أن نجاح الزغلوليين التام قد أدهش الجميع ، الملك ودار المعتمد والمعتدلين من المصريين بل والزغلوليين أنفسهم . إذ أعلن فى مجلس النواب ١٩٠ عضوا من أعضائه البالغ عددهم ٢١٤ عن تأييدهم لزغلول . حتى ان رئيس الوزراء نفسه سقط فى الانتخابات ثم قدم استقالته بعد قليل . لقد كانت مدته فى الحكم مدة مثمرة لما أظهر من شجاعة وبصر بالأمور إذ شهدت فترته إصدار الدستور وقانون الانتخاب وإلغاء القانون العرفى — مما مكن من رجوع زغلول — كما شهدت حل مسألة تعويض الموظفين الأجانب الشائكة . وقد قلبت استقالة يحيي باشا مشروعات الملك رأساً على عقب إذ كان يعتمد على بقائه فى الحكم ريثما يتم اختيار الأعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ . وبذلك اضطر الملك أن يطلب من زغلول تأليف الحكومة وأن يرضى بالتالى عمن يرشحهم لتعيينات المجلس . وحل ٢٧ يناير سنة ١٩٢٤ فاصبح زغلول أول رئيس وزارة لمصر فى ظل الدستور الجديد . وتولت الحكم فى انجلترا فى نفس الوقت تقريباً أول حكومة للعمال رأسها رامزى مكدونالد واحتفظ بوزارة الخارجية مع رئاسته للوزارة ، وكانت له بزغلول معرفة شخصية وكثيراً ما كان يعبر عن ميله لتحقيق آمال مصر فى الاستقلال التام كما فعل آخرون من أعضاء حزب العمال . ولقد بدا زغلول فى الحق يومها فى ذروة النجاح . كانت له اليد العليا في السياسة المصرية ، بينما غلب الضعف على الأحرار وبقية الأحزاب الأخرى ، حتى

الملك لم يطمع فى معارضته فوق صداقة الحكومة البريطانية له وميلها اليه. بل إن دار المعتمد التى لم يكن له صلة رسمية بها منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ — يوم أبدأت زيارته للسير ريجنالد وينجت معركة استقلال مصر — راحت تخطب وده. فلما رأى كيرKerr من المستحسن أن يتصل بزغلول قبل أن يصبح رئيساً للوزارة، زاره زيارتين خاصتين غير رسميتين ونجح خلالها فى إزالة الشك من نفسه وفى جعله يتأكد من حقيقة الدور الذى لعبه أللنبي فى سبيل الحصول لمصر على مثل ذلك الدستور الحر. بل ان اللنبي نفسه توجه لزيارة زغلول بعد عودته مباشرة من السودان رغم جريان العادة بضرورة زيارة رئيس الوزراء له أولا. فتأثر زغلول بهذا التكريم وتربى منه شعور عنده بالإعجاب والحب لأللنبى وظل محتفظاً به إلى النهاية ولو أنه لم يكن متبادلا.

وفى نفس الوقت قوبل أول طلب لزغلول من البريطانيين بالعفو عمن كانوا لايزالون فى السجون ممن صدرت ضدهم أحكام المجالس الحربيةالبريطانية بترحيب عده الكثيرون فى مصر ترحيبا زائداً، بل لقد وافقت الحكومة البريطانية على عفو أبلغ فى كرمه مما طلبه زغلول أو توقعه وكان مثل هذا الوقت مما يبشر بسهولة المفاوضات للوصول إلى حل لمسائل التحفظات. ثم عبر زغلول فى أوائل مارس ـ قبل افتتاح البرلمان ـ عن رغبته فى السفر إلى لندن فى موعد قريب للمباحثة فى المسائل المعلقة بين بريطانيا ومصر.

ولم يصادف اقتراحه أول الأمر قبولا فى نفس مستر ما كدونالد إذ كان يفضل لو نوقشت فى مصر النقط العامة لهذه التسوية على أن يسافر زغلول الى لندن فقط فى حالة الوصول إلى الاتفاق. ولكن صمم أللنبي على أن تكون

المفاوضات فى لندن . فقد كان مقتنعا باستحالة القيام بمناقشات مثمرة فى جو القاهرة الصاخب حيث زغلول معرض للضغط الدائم من المتطرفين ، وقال سنجد أنفسنا فى الحقيقـــة لا نفاوض زغلول وإنما سنفاوض عامة الشعب والصحافة . كما لم يكن من الحكمة فى الوقت الذى تعلقت فيه قلوب زغلول وأنصاره بالسفر إلى لندن أن ييأسوا من ذلك . ثم تم استعداد زغلول . إن أى تسوية يعقدها ستحظى بالموافقة من مصر كلها وكلما أسرع بالمفاوضات كلما طاب ذلك . ثم أرسل مستر ماكدونالد الدعوة لزغلول بالسفر إلى لندن بعد مناقشة قصيرة .

ومع ذلك فما أسرع ما تبين أن زغلول إنما كان يعنى إملاء لمطالب مصر أكثر مما كان يقصد المفاوضة فيها . وحتى لو كان هو مستعدا للتعقل فسيرغمه صياح المتطرفين ، الذى لم يقم بشىء لاخماده ، على إتخاذ موقف لا يستطيع التقهقر منه ، وبخاصة فى مسألة السودان .

ويعتبر يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ الذى حدد لافتتاح أول برلمان دستورى لمصر يوم فرح عظيم عام فى القاهرة ؛ فلقد ثابرت فيه الجماهير على زئير مستمر من الهتافات حتى بلغ بها الحماس درجة الجنون عندما بدت لأعينهم العربة الملكية وفيها إلى جوار الملك فؤاد مليكهم، زغلول معبودهم ، من تحدى الاستعمار البريطانى ، ومن قاد الجماهير وشجعها على طلب الاستقلال ، والذى نفى مرتين ، أما الآن فها هو ذا رئيسا للوزراء .

ومن المهم أن نتأمل مشـاعر الشخصيات الأولى فى احتفلات ذلك اليوم : زغلول وأللنبى . فزغلول نفسه لابد أن اعتلج صدره بمزيج عجيب من المشاعر ، فلا بد أنه أدرك تناقض موقفه إذ كان يقود برلمانا أقامه تصريح

٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فى نفس الوقت الذى رفض هو فيه ذلك التصريح رفضا باتا . ولكن لم يكن بد من العثور على طريقة للافلات من هذه الورطة. وربما فسر ذلك هتافات الجماهير المتكررة « النيل لا يتجزأ » « السودان » . وقليل من قدر ، وأقلهم زغلول نفسه ، ألام ستؤدى كل هذه الهتافات .

وكان أللنبي فى ثياب الفيلد مارشال شخصية رائعة كعادته . وشعر بالغبطة وهو يراقب المنظر ، إذ يرى السياسة البريطانية التى تجسمت فى تصريح ٢٨ فبراير وهى تسلك سبيلها المطلوب ، ويرى الوعود البريطانية وهى تتحقق بأمانة رغم جميع الصعوبات ؛ فأقيم برلمان حر تستطيع أن تخرج مصر فيه رجال دولة لهم السلطة المطلقة لربط بلادهم بأية تسوية مع بريطانيا . ثم راح ينظر من شرفة رجال السلك السياسى بمجلس النواب ، إلى الملامح الجامدة التى توحى بعدم التفاهم فى وجه الديماجوجى زغلول ؛ لقد كانت المصاعب وشيكة الحدوث ، ولكنها إن حدثت يومئذ فستحدث بأيدى المصريين . ولكن بقى على أللنبي أن يرى الى أى مدى ستؤثر أو ستؤخر هذه المصاعب التسوية الانجليزية المصرية التى كافح بإخلاص من أجلها .

ونظمت حتى فى حفلة افتتاح البرلمان المظاهرات ضد الحكم البريطانى فى السودان ، وما فتئت حقوق المصريين فى إدارة السودان التامة موضوع التهييج فى البرلمان والصحافة واستمرت الدعاية فى السودان نفسه بغير هوادة وبعنف خطير . وثمة علامات أخرى مزعجة . فقد قتل فى ابريل طالبان مصريان جاويشا من قوة الطيران الملكى ، وكانت هذه أولى الحوادث من نوعها من منذ سنة تقريبا ، كما هوجم فى البرلمان بعنف مركز السير لى ستاك

كسردار للجيش المصرى ، ورفض البرلمان الموافقة على الدفعة السنوية التى تدفعها مصر لجيش الاحتلال ، ورفضت الموافقة على قرار تعويض الموظفين الأجانب الذى أصدرته وزارة يحيا ، وهددت الأمور بخلق أزمة فى أواخر يونيه عندما أعلن لورد بارمور فى مجلس اللوردات أن الحكومة البريطانية لم تكن لتنوى التنازل عن مركزها فى السودان ، فلقد أثار هذا الاعلان الاحتجاجات والمظاهرات فى مصر ، وصرح زغلول فى مجلس النواب بأنه لن يمكن كسب شىء بالمفاوضات مادامت هذه وجهة النظر البريطانية ، وبأنه نوى أن يستقيل . ولكن لم تكن استقالته بالجدية على الرغم من تقديمها الملك إذ سرعان ما أقنع باستمراره فى الحكم . ثم خفف من حدة هذا التوتر التصريح السلبى الذى أدلى به مستر رامزى ماكدونالد فى مجلس العموم ، واعدت بعد ذلك العدة لعقد اجتماع فى لندن فى نهاية سبتمبر .

وبينما كان زغلول فى ١٢ يوليه يغادر محطة القاهرة إلى الاسكندرية فى طريقه الى أوربا أطلق عليه أحد الطلبة رصاصة أصابته بجروح ، ولكن لم تترك هذه الحادثة سوى أثر سياسى ضئيل ولو أنها أجلت سفر زغلول للاستشفاء فى فرنسا الى نهاية يوليه .

ولم يكد يبتدىء أغسطس حتى كانت الدسائس المصرية فى السودان قد أثمرت ثمارها السامة ، فقام طلاب المدرسة الحربية فى الخرطوم بمظاهرات مسلحة إلا أنها أخمدت فى الحال وبغير ضحايا ، بينما قامت فرقة السكة الحديد المصرية فى العطبرة بمظاهرات خطيرة أطلقت عليهم فيها النار من بعض الجنود السودانيين بقيادة ضابط مصرى وسقط بسببها بعض من الضحايا . ثم منع فيما بعد من حدوث مثل هذه الاضطرابات فى السودان نفسه وصول عدد

إضافى من الجنود البريطانيين وإبعاد فرقة السكة الحديد المصرية. أما فى مصر فقد بلغت الحال فيها حد التهديد بموقف أشد خطورة من ذلك، فقد اعتقدت الصحافة والجمهور دون بحث بأن الجنود البريطانيين إنما تعمدوا إطلاق النار على المصريين، ومع ذلك فإن محمد سعيد باشا - القائم يومئذ بأعمال رئيس الوزراء فى مصر - والذى يعلم الحقيقة تماما - لم يفعل شيئا لا لإعلان هذه الحقيقة ولا لإخماد مظاهرات الجماهير العنيفة. كل ذلك رغم الاحتجاجات المتكررة من دار المعتمد وكان أللنبي نفسه باجازة فى الوطن بينما قدمت فى نفس الوقت فى لندن مذكرة مصرية مشوهة للحقائق وبطريقة مقصودة غير لائقة فباءت بتأنيب الحكومة البريطانيـــة الشديد، كما صرح زغلول فى باريس باستحالة المفاوضات حينئذ مع الحكومة البريطانية. وإن أعلن موافقته على القيام بمحادثات شخصية مع مستر رامزى ماكدونالد لازالة سوء التفاهم.

وفشلت المحادثات التى ابتدأت فى لندن يوم ٢٥ سبتمبر الفشل الذريع. فمن الجلى أن زغلول أنما توقع أن يحادث بمفرده رئيس الوزراء محادثه خاصة، فلما أن وجد نفسه كذلك فى وجه عدد من مستشارى وزارة الخارجية كما لو كانت المحادثات رسمية، غلبت عليه سمات الصلابة والعداء. ولقد وصف لورد لويد فى كتابه «مصر منذ كرومر» أول اجتماع بهذا الوصف المناسب «بعض إتهامات عديمة الأثر متبادلة عن أكثر الحوادث ضالّة فى التـاريخ الحديث» ووصفته رسميا وزارة الخارجيـــة بأنه «محادثات ذات صبغة مبدئية».

ثم قدم زغلول فى الاجتماع الثاني مجموعة من الطلبات خاصـــة بجلاء

البريطانيين ، وبابعاد الموظفين البريطانيين ، وبالنفوذ البريطانى فى مصر وبتنازل بريطانيا عن أى مطلب لها فى حماية قناة السويس ، وحماية الأقليات فى مصر وقد عرض هذا الموضوع بتفصيل أكثر من ذلك فى الاجتماع الثالث والأخير ولم تصل بالطبع هذه المحادثات إلى نتيجة ما ، إنما دلت على أن حكومة العمال تتمسك بمصالح بريطانيا الرئيسية فى مصر والسودان كما تتمسك بها حكومة المحافظين .

لقد خاب من غير شك أمل زغلول وبات واجدا على رامزى ماكدونالد هذا الذى سبق له أن وقف من المطالب المصرية موقفا يغاير موقفه هذا تماما عندما زار مصر وهو شخص عادى . لقد أمل زغلول فى محادثات شخصية مع صديق يميل إلى رأيه وبذلك يمهد الطريق لاعتراف بريطانى بالاستقلال التام لمصر إلا أنه بدل ذلك وجد نفسه يقابل وزير خارجية يؤازره موظفون لا يثنون عن عزمهم وليس لديهم أقل استعداد للتزحزح . لا ، لم يكن التقدم فى مثل تلك الأحوال ممكنا . فليس لعقل زغلول الضيق الكثير الظنون أية موهبة للمفاوضة . نعم كان فى مقدوره أن يعرض أية قضية بكل قوة وأن ينزل أى صراع بكل شجاعة . ولكنه الآن توقع أن تقدم له ثمرات النصر بغير مناقشة . لقد قرر مجرى حياته غلطتان خطيرتان . الأولى غلطة الانجليز عندما رفضوا السماح له بالذهاب إلى لندن فى سنة ١٩١٨ . والثانية غلطته هو حينما فشل فى انتهاز فرصة العرض السخى الذى قدمه ملنر له فى سنة ١٩٢٠ .

ثم عاد الى مصر فى أواخر اكتوبر كل من زغلول وأللنبى . وسقطت فى نفس الوقت تقريبا وزارة العمال برئاسة رامزى ماكدونالد وحلت محلها

حكومة المحافظين وكان سير أوستن تشمبرلين وزيرا للخارجية فيها . لقد استهلت العلاقات بين أللنبي وما كدونالد ببعض الشكوك من الجانبين حيث مال رئيس الوزراء الى اعتبار هذا الجندى رجعيا يستعمل القوة أكثر مما يجب ، على حين كانت لأللنبي بعض أسباب عدم الثقة بتصريحات رامزى ما كدونالد السابقة فيما يتعلق بالمسألة المصرية . ولكن عندما فهم كل منهما الآخر عملا معا بين مظاهر الود الخالصة ، حتى قال أللنبي فيما بعد إنه وجد الخدمة فى حكومة العمال أكثر يسرا منها فى حكومة الحزبين الذين عمل تحت رئاستهما . ثم بدا من الطبيعي أن تكون صلاته بأويستن تشمبرلن ودية لاشتراك الرجلين معا فى الكثير . ولكن كما سنرى فيما بعد أساء بعض سوء التفاهم إلى تلك العلاقات فجعلها قصيرة غير سعيدة .

قوبل فشل المحادثات فى لندن بالهدوء فى مصر ، ولكن كان الهدوء يغطى الموقف بعض التغطية فى الظاهر ، واتضح رغم ذلك لأللنبي ولمستشاريه أن أزمة من الأزمات لا بد أن تقع قريبا . فقد كانت هناك إلى جانب مسألة السودان مسائل عديدة بارزة أنكر فيها زغلول المصالح البريطانية كما أنكر سياسة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم ظهر أنه مصمم على حصض المركز القضائى والمالى للمستشارين حتى لا يعودا بعد ذلك قادرين على شىء ؛ كذلك أعلن نيته فى إلغاء إتفاقية تعويض الموظفين الأجانب ورفض دفع بعض الأموال التى سبق أن تعهدت الحكومة المصرية بدفعها .

ولقد لخص أللنبي بمهارة موقف زغلول الشخصى فى رسالة الى وزارة الخارجية فقال « من الواضح أن ما لن يستطيع فعله زغلول هو أن يفقد ذلك النوع من الشهرة الذى كان مدة السنوات السابقة نسمة حياته ، والذى

لم يعد يستطيع الاحتفاظ به الآن — كما كان فى كثير من الأحيان السالفة — إلا بالتطرف .

وظنى أنه راح فى أواخر اكتوبر يفقد مركزه بسرعة لفشله بلندن فى الحصول على ما علم مصر أن تريده وأن تتوقعه منه وللعجز والظلم والفساد فى إدارته الداخلية ، من ناحية ، كما كان من ناحية أخرى فى خطر من انفصال بعض أنصاره المهمين من محيط الوفد الداخلى فيفقد بانفصالهم جزءاً كبيراً من ولاء جيشه من الطلبة .

وعلى ذلك فقد كان عليه أن يفعل شيئين وقد فعلهما . ولست أشك فى قيامه بهما ضد عقيدته وربما رغم إرادته — إلى أية درجة رغم إرادته ، ذلك مالا يمكن كشفه بالضبط — . فلكى يعوض ما فقده من التقدير العام اضطر إلى تقوية حكمه الاستبدادى فى البلد ، ولكى يحتفظ بالرجال الذين هو فى حاجة اليهم اضطر إلى توظيفهم . كان فى خطر من فقد رجاله لحرصه الشديد عليهم : فاحتفظ بهم بجعلهم أكثر قوة من قبل ، ثم خرجت من يده بعد ذلك سياسة الحذر بازدياد قوتهم » .

قبض زغلول على البلاد بيد من حديد بتعيينه بعضاً من أشد المتطرفين من أنصاره فى المناصب الهامة دون نظر إلى مقدرتهم الإدارية ، وبفصله من يشك فى ولائهم له من مديرى الأقاليم ، وباتخاذه إجراءات صارمة لقمع خصومه السياسيين . ثم صمم بعد ذلك على خلق أزمة ما كما صمم على حرمان القصر من القدرة على مقاومة أوامره الديكتاتورية . ونفذ ذلك فى ١٦ نوفمبر باستقالة مفاجئة وبتعبئة جيشه من الطلبة والرعاع ليمروا فى الشوارع

ويتظاهروا مطالبين بعودته . وبلغت مناورته غايتها بعد اجتماع دام ساعتين مع الملك إذ سحب استقالته بعد أخذه لبعض التعهدات منه . بينما كان الطلبة — جنودة المدربون — يواصلون الهتافات خارج القصر « سعد أو الثورة » فلما غادر زغلول القصر شكرهم علانية وصرفهم .

بلغ حينئذ زغلول القمة فى قوته وربما كان يحلم بديكتاتورية كدكتاتورية مصطفى كمال بتركيا . فلقد بلغ من اعتقاده بقوته أن عامل رئيس موظفى أللنبى — وقد أرسل لمناقشته فى الاستشارة القضائية — بخشونة وتهور مما أوجب تذكيره بأنه إنما يخاطب ممثل الحكومة البريطانية . ولكن ندر أن وقع العقاب على سوء استعمال القوة بمثل السرعة التى وقع بها هذه المرة . إذ حدثت — بعد ثلاثة أيام من انتصاره فى القصر — جريمة سببها فشله فى كبح عنف المتطرفين الذين لا يبالون من أنصاره . فأدى ذلك إلى سقوطه من الحكم .

فبعد الظهر بقليل من يوم ١٩ نوفمبر فى الساعة الواحدة والنصف أطلق الرصاص على السردار سير لى ستاك بينما كان عائداً إلى منزله من وزارة الحربية وجرح فى مواضع ثلاثة ، كما أصاب الرصاص ياوره الكابتن ب . ك من فرقة Black Watch وسائق السيارة وكان استراليا وجنديا سابقا يدعى مارش . ولقد أطلق الرصاص جماعة من الأفندية ثم هربوا فى عربة تاكسى كانت فى انتظارهم ، كذلك ألقيت إحدى القنابل ولكن لم تنفجر وقد ارتكبت الجريمة عند ما أبطأت السيارة فى منحنى شارع مزدحم واصابت رجل البوليس الذى حاول متابعتهم إحدى الرصاصات — وقد اعطته الحكومة البريطانية ١٠٠٠ جنيه لشجاعته سلمها له لورد أللنبى بالمستشفى ثم قاد السائق الجريح السيارة فى الحال إلى دار المعتمد حيث حمل السردار — وكان واضحا ان إصابته خطيرة — ووضع على اريكة بحجرة الزائرين .

وبقى الياور والجندى — ولم تكن جراحهما خطيرة — فى البهو كل ذلك أثناء مأدبة الغداء القائمة فى الدار وكان من ضيوفها مستر أسكويت. وبينما كانت لادى ستاك فى حجرة الزائرين بجانب السردار وكان أللنبي وبعض الموظفين والضيوف يتناقشون فى هذه الجريمة بالبهو إذ أعلن وصول زغلول فى الساعة الثانية والنصف. لقد علم بالجريمة وجاء ليقوم ببعض التحقيقات. فما رآه أللنبي حتى أشار بشدة إلى الياوز الجريح والى السائق وهو يقول «هذه فعلتك» وكاد يقوده الى السردار نفسه لولا أن أفهمه رجاله بعدم مناسبة ذلك لوجود معه لادى ستاك. وما كان من زغلول الا أن استدار دون أن ينطق بكلمة وأسرع بالخروج.

توفى السير لى ستاك قبل منتصف ليل اليوم التالى بالمستشفى الانجليزى الأمريكى، لقد كان رجلا ذا جاذبية شخصية فائقة، مضى عليه فى مصر والسودان ٢٣سنة وقد خدم مصر وانجلترا بإخلاص وأحبه كثيراً المصريون والانجليز واحترموه ولقد تركت هذه الجريمة أعظم الأثر فى القاهرة ومصر. أما استنكار الجالية البريطانية فكان شديداً وجه بعضه لاللنبي اذ اتهمه كثيرون بتخطيه حدود التحمل لهباج المصريين هذا، بينما انتشرت الدهشة والذعر فى الدوائر السياسية المصرية من نتائج هذه الجريمة.

كان ٢٢ نوفمبر — يوم جنازة السير لى ستاك — يوم درامة مثيرة. فلقد استشاط بعض من أعضاء الجالية البريطانية غضبا عند ما علموا بأن زغلول والوزراء المصريين — وهم المسئولون فى نظرهم عن الجريمة إلى حد كبير — سيحضرون صلاة الجنازة بالكنيسة الانجليزية، حتى قامت بينهم محاولة لإرغام أللنبي على تغيير الترتيبات التى ستتخذ، إلا انها فشلت تماما حين قال

لهم إن السردار رئيس للجيش المصرى ومسئول امام الحكومة المصرية فمن الصواب والحق ان يشترك اعضاؤها فى جنازته .

ولا يمكن ان ينسى ذلك المنظر الذى كان فى كنيسة « القديسيين » . فقد ارسل الملك فؤاد ياوره نائباً عنه ، بينما لاح على وجوه الوزراء المصريين — وعلى رأسهم زغلول — ما كانوا يحسونه من التوتر وما كانوا يرونه من عداء لهم فى نظرات البريطانيين الموجودين بالكنيسة وازدحمت الكنيسة الصغيرة فى نفس الوقت برجال البحرية البريطانية ، والجيش وبالمدنيين من أعضاء الجالية ، وبرجال السلك السياسى فى كامل ثيابهم ، كما حضر ممثلو جميع الجنسيات الأجنبية فى مصر . بينما قد تألف فى الخارج موكب كبير يضم كل الجنود البريطانيين فى القاهرة حتى كادوا يبلغون فى طول موكبهم المقبرة نفسها كما تجمعت الجماهير الغفيرة على طول الطريق وبدا أللنبى فى داخل المقبرة ببذلته الخاكية شخصية جليلة مرهوبة تشعر بوطأة الانفعال العميق ولو أنه انفعال مكتوم . ثم وقف وحده قبالة النعش ما يقرب من عشر دقائق ينتظر وصول لادى ستاك وابنتها . ثم حمل النعش أخيرا إلى القبر — بعد صلاة بسيطة قصيرة — على أكتاف ثمانية من الضباط الإنجليز ممن يعملون بالجيش المصرى . ولقد اشـــترك الأمراء المصريون والشيوخ والنواب فى الموكب الطويل الذى كان يستغرق مروره بأحد الأماكن ساعة من الزمن حتى كاد يخيل الى المرء أن القاهره خرجت كلها لتشاهد تلك الجنازة، فلما وقف أللنبى بجوار المقبرة ظهر عليه التأثر الشديد كما تجلى فى وجهه أنه مقدم على قرار خطير ، ولم يقع فى تصرف الجماهير فى القاهرة ما يمكن أن تعاب عليه، أما فى الاسكندرية فقد وقعت بعض المظاهرات التى كان يهتف فيها « يسقط الانجليز » وذلك خارج الكنيسة التى أقيمت بها الصلاه التذكارية .

ولكن لم تنته درامة ذلك اليوم بالجنازة . فقد كان مقرراً أن يجتمع البرلمان فى الخامسة من ظهر ذلك اليوم وراحوا ينتظرون فى قلق ما سوف يتخذ من قرارات بينما ظن أن الحكومة ربما تستقيل . وراح أللنبي بدوره فى دار المعتمد ينتظر بصبر فارغ برقية من وزارة الخارجية إذ كان مصمماً على تقديم الانذار النهائى للحكومة المصرية بعد ظهر ذلك اليوم . وكان قد أبرق للوطن بشروطه المقترحة وطلب منهم الرد ظهر ٢٢ نوفمبر . فلما أن انقضى الظهر ولم يأت الرد بلغ نفاذ الصبر بأللنبي مداه ، فقد كان مصرا على تسليم المذكرة لرئيس الوزراء قبل أن يجتمع البرلمان فى الخامسة . كان يخشى أن يقدم زغلول استقالته قبل أن يتم هو ذلك ، فلما بلغت الرابعة والربع رأى أنه لا يستطيع انتظار موافقة وزارة الخارجية أكثر من ذلك . وكان قد أمر فرقة فرسان لا نسرز Lancers بأن تقف بجانب ثكنات قصر النيل بعد انتهاء الجنازة ثم أمرها الآن بالقيام بحركة استعراض أمام دار المعتمد لتحرسه فى ذهابه إلى مكتب رئيس الوزراء . لقد ندر أن استخدم أللنبي الاستعراض والاحتفال ، ولعلها المرة الوحيدة التى تعمد فيها استخدام الأساليب المسرحية . ولكن كان لايزال أمامه قرار خطير ليتخذه ، فبينما هو يغادر دار المعتمد ليركب عربته إذا بأحد موظفيه يهرع اليه . لقد وصلت البرقية التى طال انتظارها من وزارة الخارجية وراحوا يحلون شفرتها ، وكانت برقية طويلة وبذلك وضح أنها ليست موافقة تامة منهم على مقترحات أللنبي . وانتظر هو حتى إذا أدرك أنه مستحيل أن يتم حل شفرتها قبل الساعة الخامسة قرر أن يمضى فى تنفيذ إنذاره بغير تردد فسار — ببذلته الرمادية العادية — بين حرسه من اللانسرز يقصـــد رئيس الوزراء ، وكان مكتبه فى مواجهة دار مجلس النواب حيث راح النواب يتجمعون فيه انتظاراً لعقد الجلسة . وبعد أن تلقى من الفرسان تحيتهم وصدح موسيقاهم

دخل أللنبي البناء واتجه رأسا إلى غرفة رئيس الوزراء . ثم قرأ عليه بالانجليزية نص مطالبه وترك له ترجمتها الفرنسية ، ثم عاد لعربته . وتلقى من الفرسان تحية أخرى أمام الجماهير المتجمعة ورجع وسط حرسه فى بطء إلى دار المعتمد ، ليعلم من البرقية الجديدة إلى أى حد كان عمله هذا موافقاً أو غير موافق لرغبات حكومته .

وكان هذا نص إنذار أللنبي :

لقد قتل الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى والضابط الممتاز بالجيش البريطانى بوحشية . وان حكومة صاحب الجلالة الملك لتعد هذا القتل الذى يجعل مصر الآن محل احتقار العالم المتمدن — نتيجة طبيعية لحملة العداء الموجهة ضد الحكومة البريطانية والرعايا البريطانيين فى مصر والسودان ، تلك الحملة المؤسسة على الكنود الأحمق بالنسبة للفوائد التى هيأتها بريطانيا ، تلك الحملة التى لم توقفها حكومة دولتكم ، والتى دبرتها هيئات على صلات وثيقة بحكومتكم . ولقد حذرتكم حكومة صاحب الجلالة منذ أكثر من شهر من النتائج التى سوف تترتب على فشلكم فى وضع حد لتلك الحملة ، وبخاصة فيما يتعلق بالسودان ، ولكن لم يوضع لها حد ، وهاهى الحكومة المصرية تسمح بقتل حاكم السودان العام ، وتبرهن بذلك على أنها غير قادرة أو غير راغبة فى حماية أرواح الأجانب . لهذا تطلب حكومة جلالة الملك من الحكومة المصرية :

١ — اعتذاراً كافياً عن الجريمة .

٢ — القيام بالتحقيق لمعرفة مرتكبي الجريمة وبأقصى النشاط الممكن

ودون احترام للشخصيات ، وتقـديم المجرمين — أياً كانوا وأيا كانت سنهم — للعقاب الذى يستحقونه .

٣ — تمنع بكل شدة وتخضع كل مظاهرة سياسية شعبية .

٤ — تدفع الحكومة المصرية لحكومة جلالة الملك غرامة مقدارها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه .

٥ — الأمر فى مدى ٢٤ ساعة بسحب الضباط المصريين من السودان ، والوحدات المصرية الصميمة الموجودة بالجيش السودانى مع إدخال التغييرات الناتجة عن ذلك والتى ستذكر بعد .

٦ — إخطار المصلحة المختصة بأن حكومة السودان ستزيد مساحة أراضى الجزيرة التى تزرع بالرى من ٣٠٠,٠٠٠ فدان إلى مساحة غير محدودة ، وبالنسبة لما تدعو الحاجة اليه .

٧ — سحب كل معارضة فيما يتعلق بالمسائل المذكورة فيما بعد ، وذلك وفقاً لرغبات حكومة جلالة الملك فيما يختص بحماية مصالح الأجانب فى مصر .

وإذا لم تنفذ هذه المطالب فوراً فان حكومة جلالته ستتخذ فى الحال الإجراءات الفعالة لحماية مصالحها فى مصر والسودان . »

ولقد فصلت المطالب المذكورة فى المادة الأخيرة فى وثيقة منفصلة . وهى ضرورة اعتبار الوحدات السودانية فى الجيش المصرى جزءاً من قوة الدفاع السودانية التى تدين بالولاء لحكومة السودان فقط ، ووجوب إعادة النظر فى مسألة استبعاد الموظفين الاجانب بما يتفق والمصالح البريطانية ،

ووجوب إبقاء المستشارين المالى والقضائى .

ولما حلت شفرة البرقية الواردة من وزارة الخارجية وجد أنها حذفت طلب التعويض وطلب إعادة النظر فى مسألة الموظفين على حين غيرت طلب رى منطقة غير محدودة من أراضى الجزيرة إلى : « زيادة رى الجزيرة إلى الحد الذى يمكن اعتباره غير ضار بمصر عن طريق لجنة فنية تضم إليها عضوا تعينه الحكومة المصرية » . كما خففت لهجة الاتهام الموجودة فى الديباجة . ولو قرأت وثيقة وزارة الخارجية عقب الحادثة فى جو هادىء وبغير عجلة لأمكن اعتبارها عرضا لوجهة النظر البريطانية أكثر اتزانا وأقل تعرضا للاتهام بالانتقام وبالتحرى عن فرصة الكسب مما اتهم به البعض إنذار أللنبى . فقد احتج هؤلاء بقولهم إن المطالبة بثمن الدم أمر مشين بينما تعويض الموظفين ورى السودان مسألتان لا علاقة لهما بالقتل . ومع أن الحكومة البريطانية قد أيدت إنذار أللنبى إلا أنها انزعجت لما اعتبرته منه عملا مفاجئا عنيفا وطلبت منه إيضاحا له . ورد أللنبى بقوله إنه اعتبر المطالبة بذلك المبلغ الكبير أمرا ضروريا ليقتنع المصريون بالنتائج الإجرامية لسياسة حكومتهم ، وأنه قصد برى الجزيرة نفس السبب لتظهر لمصر القوة التى نستطيع استخدامها إذا لزم الأمر بسيطرتنا على السودان . ولم يقصد أللنبى أبدا برى منطقة غير محدودة أن تروى فى الحقيقة من غير اعتبار للمصالح المصرية . ولكنه أراد بذلك أن شيئا من التنازل يمكن تقديمه لحكومة مصرية أكثر صداقة .

ولقد ضمت مسألة حقوق الموظفين الأجانب فى مطالب الإنذار كأفضل حل لصعوبة قائمة ، ولكى لا يقدم مثل هذا الطلب الى حكومة صديقة تخلف حكومة زغلول التى توقع أللنبى استقالتها التى كان يطمع فى مجيئها نتيجة لإنذاره

ويمكن قول الكثير عن وجهة نظر أللنبي التى لقيت التأييد الإجماعى النافع من الجالية البريطانية والجاليات الأجنبية فى مصر .

وجاء الرد المصرى الذى أعلن اشمئزازه من تلك الجريمة بعدم الموافقة على أى مطلب من المطالب السابقة إلا على مطلب التعويض فقط . ثم أسرع أللنبي باخبار الحكومة المصرية عن إصداره الأوامر المتعلقة بسحب القوات المصرية من السودان ، وباعطائه مطلق الحرية لحكومة السودان فى زيادة المساحة التى تروى من أرض الجزيرة . كما أمر باحتلال الجمارك المصرية باسكندرية ضمانا لتنفيذ شروطه الأخرى . وكان ذلك منه مرة ثانية إقداما على عمل لم ينتظر عليه موافقة حكومة صاحب الجلالة . وهنا استقالت وزارة زغلول بعد أن دفعت ½ مليون جنيه مع عدم موافقتها على تنفيذ المطالب الأخرى ، وارتقى « زيور باشا » رئاسة الحكومة . لم يكن على مقدرة عظيمة ولكن كانت له شجاعته كبيرة وتفاؤل لا تخمد جذوته . وهو من أصل قوقازى . ولو أنه مسلم إلا أنه تلقى مبادىء تعليمه عند الجزويت . كان ضخم الجسم ، فيه روح المرح التى كثيرا ما تلازم مثل تلك الضخامة التى اضطرتهم إلى عمل مقعد خاص به فى رئاسة مجلس الوزراء . وهو لغوى قدير ، ومن طبيعته — ولو أن ذلك مما يضايق — أن يمزج فى كلامه بين اللغات المختلفة فيتكلم بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية والتركية فى آن واحد . وكانت تنحدر على أسفل خده الأيسر دمعة لا تنقطع ، إذ لم يكن يخلو فمه قط من سيجارة فى جانب من جوانبه يدخل دخانها فى عينه .

. . . .

ولقد سبق لزيور أن تبوأ المناصب الوزارية مرات عدة منذ سنة ١٩١٩ ولما ارتقى الحكم زغلول سنة ١٩٢٤ اختير أول رئيس لأول مجلس شيوخ

مصرى . وهو مؤمن بالصداقة الانجليزية وبذلك كان بطبيعته ومظهره الرجل المطلوب للخروج بمصر من هذا الموقف الصعب . كان له من الرأى الصائب ما يفهم به أن السياسة الوحيدة لمصر هى موافقتها على المطالب البريطانية بغير سؤال . وكان خبيراً بالانجليز بحيث أدرك تماماً أنهم لن يكونوا ظالمين بعدأن يفرغ غضبهم . فوافق على شروط الانذار . وجلت بذلك الجنود البريطانية عن الجمارك ، وكما سبق لأللنبي عند ما رسم خطته بالشطط فى مطالبه بات من الممكن الآن التساهل مـــع حكومة صديقة . كان من نتائج ذلك أن حددت المساحة التى ستروى من أرض الجزيرة لجنة مثلت فيها مصر .

هكذا كانت قصة مقتل السير لى ستاك ، وهكذا كان الدور الذى لعبه أللنبي فى الحصول على الترضية عينها . أما من وجهة نظر الحكومة المصرية فكان — كما قيل عند اعدام دوق « دانجين » d'Enghein قبل ١٢٠ عاماً — « إنها أسوأ من جريمة ، إنها غلطة فاحشة » ويمكن تبرئة زغلول من أى معرفة سابقة بالجريمة وان يكن أدرك تماماً نتائجها المشئومة التى عادت عليه ، حتى قال بحزن بعدها بقليل « كانت ضربة قاضية لى » ويبدوأنه لم يقدرأبداًمسئوليته هو عن القتل بفشله فى السيطرة على أشد أتباعه تطرفاً .

وأما من وجهة النظر البريطانية ، فقد حل ذلك القتل العلاقات الانجليزية المصرية عند ما تهددت بخلق أزمة حقيقية ، حتى ليمكن القول بأن جثةالسردار كانت تهيئة من الأقدار لحل موقف لم يكن يطاق . ولقد قوبل عمل أللنبي بالمدح لشجاعته وتصميمه ، كما لقى القدح لتهوره وفظاظته التى لا مبرر لها . ولكن أجمع الذين شهدوا الموقف وعرفوا المصريين على تأييده تقريباً . أما البعيدون عنه فقد اتهموه بنقدهم . بينما فهم المصريون أنفسهم اليد القوية ،

ولم ينتظروا هم أقل من ذلك . ولكن يجب أن نتذكر الحوادث التي عمل اللنبي تحت تأثيرها ، فلقد رأى السردار الجريح المتألم يحمل إلى دار المعتمد كما أحس بموجة السخط التي أثارتها الجريمة في نفوس البريطانيين والأجانب المقيمين بمصر فشعر بأن المصريين خانوه . لقد كانت له اليد الطولى في الحصول على استقلالهم ، فهو الذي صمم — ضد آراء كثيرة — على أن يعطى المصريون الفرصة لإدارة شئونهم الخاصة ، ثم تحمل الأخطار للوصول إلى تلك الغاية — لا فيما يتعلق بسمعته فقط — التي لم تكن تعنيه قط — بل فيما يتعلق أيضاً بأرواح مواطنيه ومصالحهم — وهي التي كانت تعنيه جداً ثم ها هو يجازى على دفاعه عن مصر بتلك البطولة بهذه الجريمة . لذلك كان انفعاله قوياً ، أشبه بغضبه عند ما كان يجد ضابطا وثق به لا يستحق هذه الثقة . لم يغفرها لزغلول أبداً ، بل كان يتكلم عنه بعد ذلك فيقول « ذلك العجوز الخبيث » .

ولم يتم إخراج الوحدات المصرية من السودان بغير قلاقل خطيرة . فسحبت الوحدات المصرية نفسها بعد أن تظاهر بعضها بالمقاومة ، ولكن قامت قوة سودانية أفسدتها الدعاية المصرية — وكانت أشد مراساً — بثورة لم يخمدها إلا إراقة دم كثير . ومما يثبت أن رأى اللنبي وتقديره لمصر لم يذهب به مقتل سيرلي ستاك ، رفضه تأييد طلب حكومة السودان القوى إزالة العلم المصري من كل أبنية السودان .

اختتمت سنة ١٩٢٤ التي كانت ذات أهمية كبيرة في الشئون المصرية بنهاية أهدأ نسبياً . فلقد قبل زيور باشا جميع المطالب البريطانية وظفر ببعض التساهل من البريطانيين . وعين صدقي باشا — وهو شخصية قوية — وزيراً فانهمك في إصلاح ماسببته إدارة زغلول من أضرار . ثم حل البرلمان على أن

تجرى الانتخابات الجديدة فى أوائل سنة ١٩٢٥ .

وقدم أللنبي استقالته من منصب المعتمد البريطانى ، ولم يعرف ذلك وقتها على وجه العموم . وقد رفض سحب استقالته رغم رجاء وزارة الخارجية المتكرر ، ولو أنه وافق على الاستمرار مؤقتاً فى الخدمة . ومع إن أسباب استقالته ترجع إلى نهاية ١٩٢٤ إلا أنه يحسن معالجتها فى الفصل الخاص لسنة ١٩٢٥ ، وقت أن نفذت استقالته .

الفصل الثامن

١٩٢٥ — أللنبي يغادر مصر

حضر أللنبي الى مصر وسط عاصفة هوجاء وغادرها وهى فى هدوء رائع يناقض اضطرابها يوم مجيئه ، ويبشر بالكثير من الخير . ولقد ازدادت اليوم رفعة المكانة التى بلغتها بريطانيا فى مصر عما كانت عليه منذ أن غادرها لورد كتشنر فى ١٩١٤

التيمس فى ٢٠ يونيه ١٩٢٥

سنصف باختصار — قبل أن ندرس الأسباب التى أدت إلى استقالة أللنبي — الحوادث السياسية التى وقعت فى الستة الأشهر الأولى من ١٩٢٥ إلى الوقت الذى غادر فيه أللنبي مصر . فلقد صفا الجو بتلك العاصفة التى هبت على أثر مقتل السير لى ستاك وأعقبتها فترة من الهدوء النسبى . كبذلك أدت جهود صدقى باشا — التى تمتاز بالكفاية رغم خروجها على كل مبدأ — لإضعاف قوة حزب زغلول الى معركة انتخابية وشيكة الحدوث للبرلمان الجديد . ثم جاءت نتيجتها النهائية فى مارس بالتعادل الظاهر بين الحكومة والمعارضة حتى اعتبرها الطرفان نصراً لكل منهما ، ثم اجتمع البرلمان فى العاشرة من صباح ٢٣ مارس . ولما استأنف عمله — بعد أن افتتحه الملك رسمياً — بدأ بانتخاب زغلول رئيساً للمجلس بأغلبية ١٢٣ صوتاً مقابل ٨٣ . فكانت صدمة لوزارة زيور الذى كان يعول على أغلبية يمثلها . وبدأت جلسة المساء

فى الخامسة ولم يحضرها واحد من الوزراء ، ثم استمرت طبيعية حتى ٧,٤٥ مساء عند ما فتحت الأبواب ودخل رئيس الوزارة يتبعه أعضاؤها ثم قرأ مرسوماً ملكياً بحل البرلمان فكأنه بذلك قد مكث أقل من ١٠ ساعات، وكان بكل تأكيد أقصر برلمانات التاريخ عمراً . ووعدت الحكومة بإجراء انتخابات أخرى فى الخريف بعد أن تصدر قانون انتخاب جديد .

وبقيت الحال هادئة فى نفس الوقت وكانت الحادثة الرئيسية وقتئذ هى القبض والمحاكمة والادانة لقتلة السردار . جاءت إدانتهم نتيجة لعمل باهر من أعمال البوليس قام بالدور الأول فيه ضباطه البريطانيون . وكانت الصعوبة فى هذه الحادثة ككل الجرائم السياسية الأخرى التى وقعت فى السنوات الأخيرة فى مصر هى الحصول على الأدلة ضد الجناة الذين كانوا معروفين كثيرا أو مشتبه فيهم بقوة من البوليس وأحيانا ما كان يقبض على الفعلة الحقيقيين ثم يطلق سراحهم لقلة الأدلة ضدهم حدث أن كانت هذه العصبة المنظمة المسئولة عن حوادث القتل تهدد — لو استلزم الامر — الشهود لكى لايتقدموا ، بل كانت — عند الضرورة — تعد شاهدى الزور للدفاع عن أعضائها ! وعلى ذلك فما دام لم يقبض على القتلة وأيديهم ملوثة بدماء ضحاياهم فان الأمل الوحيد بقى فى أن يؤخذ الاعتراف من أحدهم بالحيلة أو بوعد بالعفو عنه .

وبعد بحث طويل استطاع رؤساء البوليس البريطانيون أن يثقوا من طالب حقوق قديم سبق له أن اشترك فى ١٩١٥ بدافع خاطىء من الوطنية فى محاولة للقضاء على السلطان حسين . وحكم عليه بالاعدام ثم خفف إلى حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة واشتغل فى ليمان طره عشرة أعوام فى تكسير الحجارة قبل أن يسمح له بمغادرة السجن بعد أن صدر العفو العام . ولما

أفرج عنه ووجد أن أولئك الذين استخدموه إنما استغلو فيه وطنيته فقط كأداة لهم، ثم لم يعد لهم حاجة به الآن، فقد صمم على الانتقام، ثم اشتركت العوامل المختلفة — من الأمل فى ١٠,٠٠٠ جنيه وهى المكافأة المعروضة لمن يدلى بالمعلومات عن قتلة السردار؟ إلى الأمل فى أن يفوز بالعفو عن جريمته الأصلية — فى دفعه إلى خدمة البوليس. فظهر فى صورة من يتحرق إلى الانتقام من البريطانيين حتى حاز ثقة هذه العصبة القتالة، وأصبح بسرعة قادراً على أن يخبر ضابط البوليس الذى يشرف على القضية بأسماء قتلة السردار ولقد قرر أن يستخرج البوليس بالإرهاب والاعتراف من أضعف عضو فى العصبة وهو طالب مصرى شاب. وقبض على عضو مع الجناة الآخرين وسمح بإذاعة تقرير قيل إنه اعترف فيه. ولقد حمل وكيل البوليس الطالب وأخاه — وكان عضواً آخر من أعضاء العصابة — على الاعتقاد بأن الاعتراف قد تم فعلا، ولما وجدا أن منزلها يراقبه البوليس، قاما فى محاولة جنونية للهرب إلى ليبيا بطريق الصحراء الغربية، آخذين معهما الأسلحة التى استعملت فى حادثة القتل، وهناك عند حافة الصحراء قبض عليهما. ثم اعترف أضعف الأخوين وهو فى حالة ذعر فظيع.

وقد وقعت حوادث القبض فى نهاية يناير فلم تأت نهاية مايو حتى قدم سبعة من الرجال للمحاكمة بتهمة القتل، وحكم بالإعدام على ستة نفذ الحكم فى خمسة منهم. أما الطالب الذى انقلب شاهد ملك فقد استبدل إعدامه بالأشغال الشاقة المؤبدة، بينما تسلم وكيل البوليس مبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه مكافأة مع العفو عنه فى الجريمة التى ارتكبها ١٩١٥.

وهكذا ختم الفصل الأخير فى المأساة التى كان لها أعظم الأثر فى تاريخ

مصر . وغادر أللنبي مصر — وهو من قام بدور من أدوارها الرئيسية — بعد أسبوع من النطق بالحكم .

أما الحادثة التى أدت إلى استقالة أللنبي فهى القرار المفاجىء لوزير الخارجية مستر اوستن تشمبرلن فى فترة الأزمة التى أعقبت مقتل السردار ، فأرسل إلى مصر — دون أن يستشير أللنبي — موظفاً دبلوماسياً أقدم منه ، وسرعان ما أصبح هذا بطريقة آلية ممثل وزارة الخارجية الرئيسى فى مصر ، ومستشار أللنبي المهم . وكان هذا العمل من وجهة النظر الحربية مساوياً لطرد أهم ضابط فى أركان حرب جنرال — فى أثناء المعركة — دون التنبيه عليه . وطبيعى أن يعتبر أللنبي ذلك عملا يتضمن عدم الثقة بكل من ضباطه وبه .

ولو أن هذا القرار جاء مفاجأة إلا أن جذوره ترجع إلى زمن بعيد . فلقد وجدت منذ تصريح ١٩٢٢ وجهة نظر لجماعة من ذوى النفوذ فى لندن داخل وزارة الخارجية وخارجها على السواء ، استمروا فى كرههم للقرار الأصلى الذى فرضه أللنبي على الحكومة ثم راحوا يتطلعون بنفور متزايد إلى المصير الذى انقلبت اليه الحوادث فى مصر والطريقة التى فسرت بها سياسة التصريح وطبقت . ولقد ازداد ذلك النقد الموجه إلى أللنبي قوة وانتشارا خلال ١٩٢٤ عند ما كانت القوة فى يدى زغلول ، فكان يجد ذلك النقد الوقود المستمر فى الرأى العام البريطانى — وأحيانا عند الأجانب — فى مصر نفسها . وأكبر ما وجه إلى أللنبي من التهم هى أن ضعفه واعضاؤه أمام الهياج الذى وقع فى مصر قد عرضا مصالح بريطانيا بل حتى حياة البريطانيين أنفسهم للخطر . ثم بدا مقتل السير لى ستاك مبررا لهذا النقد . ومع أنهم أقروا الشدة التى أظهرها أللنبي عقب الحادث ، فقد اعتبرت شروط إنذاره خطلا فى الرأى ، وعد عمله

ذلك عملا لا روية فيه ، فلقد بدا أللنبي فى نظر وزير الخارجية كأنمـا أخذ الشكيمة بين أسنانه ولذلك صمم وزير الخارجية على أن يستعمل له «الفرملة» وسرعان ما هرع إلى مستر نيفل هندرسون وأمره بالذهاب إلى القاهرة . ولو قد جاء هذا التعيين بعد مشاورة سابقة لأللنبي لكان خليقاً به ألا يرفع صوته بكلمة اعتراض ، وكما حدث فان نص وطريقة كل من التعيين العلنى والتبليغات الرسمية إلى أللنبي مما يعتبر شيئاً من سوء الحظ .

لقد قصد بالتعيين العلنى أن يكون مستر هندرسون «وزيرا كامل التفويض» ، بينما يعمل بالمفوضيه فى القاهرة . وهذا هو اللقب العادى لدرجة الوزير فى السلك السياسى ، كما لم يرد به أن يتضمن شيئا غير مألوف ، ولـكن لحدوثه فى ذلك الوقت جعل من الطبيعى أن يفسر ذلك فى القاهرة على أنه إشارة تنطوى على رسالة خاصة هى تغيير فى السياسة وإلى حد ما على الأقل إلغاء سلطة أللنبي . ولقد ارتكب مستر تشمبرلن بطريقة تبليغه التعيين لأللنبي ما يصح أن يعد دائما غلطة خطيرة فى معاملة أللنبي إذ لم يكن تام الصراحة معه وهذه هى الأسباب التى دعت إلى تعيينه لمستر هندرسون .

« إنى لمتأثر من الصعوبة التى ألقاها فى محاولة وضع رأى وغرض حكومة جلالة الملك فى متناول يدك ، بمجرد برقيات متبادلة وعلى ذلك فقد قررت أن أرسل مستر نيفل هندرسون إلى القاهرة . إنه موظف ذو خبرة فائقة ، ولقد شرحت له مشافهة شرحا وافيا — مما لا يمكن توفره فى المراسلات التلغرافية — الأغراض التى ترمى إليها حكومة جلالة الملك ، والصعوبات التى تود لو تتفاداها ولقد وضعت فيه ثقتى التامة ويقينى أنه سييسر لك العمل بالبيانات التى سيكون فى مقدوره أن يقدمها لك وسينضم الى رجالك بدرجة وزير ، ولسوف يخفف

كما أرجو من العبء الذى لا بد أن يكون على رجالك القليلين هذه الأيام . »

وكان أول رد لأللنبي على ذلك وهذا — من خصوصيات ولائه لرجاله — أن أبرق إلى وزير الخارجية بأنه سيكون سعيدا بتلقى مساعدة مستر هندرسون فى أثناء فترة الشدة ، وبأن يعرف منه رأى وغرض حكومة صاحب الجلالة ، لكنه سيكون مسرورا لو أخذ تأكيدا بأن القصد من ذلك ليس هو إراحة مستشاره كلارك كر (Clark Kerr) الذى يضع فيه كما يضع فى بقية رجاله ثقته الكاملة . وكان الرد يرمى إلى أن وزير الخارجية — ولو لم يقصد إهانة هذا المستشار — إلا أن مستر هندرسون — بالطبع — سيصبح المقدم على كل رجل من رجال أللنبي » .

ورأى أللنبي فى نفس الوقت أثر التعيين العلنى فى مصر ، فأبرق بأن ذلك قد حمل على أنه مساو لتنحيته عمليا ، وأنه قد أضعف مكانته إضعافا شديدا ، وسيصبح مركزه فى الواقع غير مفهوم ، مالم يستطع وزير الخارجية أن يرى لنفسه مخلصا يصحح به ذلك الأثر بإصدار بيان فى الحال يقول فيه إن مستر هندرسن إنما جاء فقط بقصد دراسة الموقف وتسهيل تبادل الآراء بين وزير الخارجية وبينه ، وإنه سيغادر مصر الى لندن بعد أسبوعين من وصوله .

كان شعور أللنبي فى الواقع حيال غرض وزير الخارجية الذى صرح به من « وضع رأى وغرض حكومة جلالة الملك فى متناول يده تماما » أنه يمكن أن يتوفر ذلك — إن لم يكن أفضل منه بزيارة مؤقتة ، أكثر مما يتوفر بالتعيين الدائم ، ومع ذلك فلو أن هذا التعيين قد تم بسبب عدم الرضى عنه أو عن رجاله لكان من الواجب أن يقال ذلك صراحة .

ثم تبودلت برقيات عدة جرت على هذا المنوال حاول فيها وزير الخارجية إقناع أللنبي بأن التعيين كان تعيينا عاديا ، يقصد به فقط تقديم المعاونة له وملء الفراغ الشاغر بين رجاله . بينما أصر أللنبي على أن أثر التعيين فى مصر كان مما يؤسف له ، وأنه ما لم تصبح زيادة مستر هندرسن مجرد زيارة مؤقتة ، فانه سيحافظ على عزمه على الاستقالة . وكانت آخر برقية فى سلسلته ما يأتى :

« إما أن يكون لك ثقة بى أو لا يكون . وحيث إنك قمت بتعين عجيب لرجل من رجالى فى أثناء أزمة دون أن تستشيرنى ، وأعلنت ذلك من غير أن تترك لى فرصة أعبر فيها عن رأيى ، فانى أعتقد أنك لا تثق بى . وإذن يكون من واجبى أن أستقيل . ولكن يجب أن تعرف أنه فى بلاد كهذه يكون التفسير الوحيد فيها لمثل هذا التعيين هو عدم الاصرار على الغرض ، مما يعد فى مثل هذه اللحظة مصيبة من المصائب . لست أبغى سوى المصلحة العامة ، لكنى لا أرى مخلصا من هذه المشكلة مالم تستطع أنت عمل الترتيب لإعلان أن هندرسن إنما جاء فقط برسالة خاصة ، ولفترة وجيزة جدا ، وسيسرنى — كما قلت فى برقيتى السابقة لقاء مستر هندرسون ، وتلقى معونته وإنى لأقرر تضامنى معك التضامن المطلق فى التعاون الصادق المفيد فى هذا العمل المهم العام . ولست أحب أن أقحم مسألة استقالتى فى هذه اللحظة ، غير أنى لا أزال عند برقيتى السابقة فى يوم ٢٧ نوفمبر » .

وللأسف أزداد شك أللنبي فى إخلاص مستر شمبرلن باكتشافه عند وصول مستر هندرسن ، أن الوزير الذى كان يريد أن يضع فى متناوله تماما رأى وغرض حكومة صاحب الجلالة ، قد دعى فى الواقع على عجل من إجازته وأنه حظى فقط بمقابلة واحدة مع وزير الخارجية قبل أن يقوم بالسفر . كما

لم تكن له خبرة بمصر سابقة .

وبعد ذلك بأسابيع ثلاثة ، عندما انتهت عمليا الأزمة التى سببها مقتل السردار كتب مستر شمبرلن لأللنبي يأسف على « سوء التفاهم » الذى وقع بينهما ، ويسأله السماح بأن يقدم استقالته .

« إذ أن الرغبة الطبيعية لرجل عظيم خدم التاج ، هى أن ينتهز الفرصة التى أتاحها انتهاء فصل من علاقاتنا بمصر ، وابتداء آخر كوقت مناسب لنشدان الراحة من عناء مثل هذه الفترة المديدة والخدمة الشاقة ، وللختام الطبيعى والأشرف لمجرى حياتك العظيم فى الشرق الأدنى أولا كجندى والآن كسياسى » .

وأقر أللنبي الروح التى أملت على مستر شمبرلن خطابه ، لكنه رفض أن يوافق على اعتبار المسألة بجرد سوء التفاهم مؤقت ، وكتب عن الاقتراح الخاص بالأسباب التى يقدم بها استقالته يقول :

« ليست لى مشاعر خاصة فى هذه المسألة ، لكنى — ولو أنى أشكرك على الحل الذى اقترحته — لا أستطيع أن أطلب التخلى بقصد الاستراحة من عناء لا أحس به وعلى ذلك يجب أن أرجو — عند ماتنتهى الأزمة — أنك سوف توافق على طلبى بخصوص السماح لى بالاستقالة من عملى الحالى على الأساس الذى قدمته فى برقيتى بتاريخ ٢٦ نوفمبر » .

وكم كان كدر أللنبي عظيما عندما ظهر الخبر بأنه قدم استقالته فى جريدة من جرائد لندن ، وعندما أبرق بالخبر إلى مصر . وقد كان هو فى نفس الوقت هدفا لهجمات سامة وبوجه خاص فى بعض النواحى من صحافة لندن . لم

يسبق لرجل أن أعاز النقد الشخصي انتباها أقل منه ، ولكن كان لهذه الهجمات ولخبر استقالته أقوى الأثر فى اضطراب الموقف السياسى قبيل الانتخابات ، كما كانت مما تشجع به الزغلوليون . وعلى ذلك طلب أللنبي أن يكذب الخبر الخاص باستقالته ، واقترح بأن تكف الصحف المسئولة هنا عن هجماتها مدة قصيرة ؛ تلك الهجمات الضارة بمصالحنا ، والتى ربما كانت العامل الحاسم فى نجاح الزغلوليين أو هزيمتهم ، ثم أضاف « لو أنهم أحبوا العودة إلى الهجوم بعد أسبوعين أو ما يشبه ذلك ، فلن تجدى هذه الاعتراضات بعدها » .

وكتب أللنبي برقية فى ٢ مايو لوزير الخارجية يقول إنه يعتبر الوقت الذى يجب فيه عليه أن يقدم استقالته للملك ويعلنها قد حان . ولقد عارضت خطابا لمستر شمبرلن كتب قبل ذلك بيومين ، يذكر فيه نفس الاقتراح ، ويبدو أنها كانت المرة الوحيدة فى هذه المأمورية المؤسفة التى كانا فيها على اتفاق تام . ولكن كانت لا تزال هناك واقعة قبل ختام الفصل لكى تضيف إلى حنق أللنبي . فلقد طلب — بوجه خاص — أن يعطى إشارة قبل يومين عن التاريخ والساعة التى سيعلن فيها اسم خلفه حتى يستطيع أن يخبر الملك فؤاد ورئيس الوزراء قبل أن تصل الأخبار إلى مصر ، كما أنه نصح بشدة أن يصحب التعيين تأكيد بأن تغيير الأشخاص لا يعنى تغييرا فى السياسة ثم بعد ذلك بأسبوع علم من تلغراف لروتر بأن سيرجورج لويد قد قبل مركز المعتمد البريطانى خلفا له . وكان الإعلان — ولو أنه غير رسمى — صحيحا . ومن الطبيعى أن يغضب أللنبي من عدم أخذ رأيه ، ومن الإهمال الذى سمح بأن يصبح خبر التعيين ملكا مشاعا فى مصر قبل أن يعلم هو نفسه به .

غادر أللنبي مصر بعد شهر فى ١٤ يونية . وكان هذا الشهر الأخير له

بمصر فرصة لسلسلة رائعة من المدائح وجهت لعمله ولشخصيته فى صحف بريطانيا وفى مصر على السواء، ومن جميع الجاليات فى مصر، ولقد استخدم أصدقاء أللنبي فى وزارة الخارجية نفوذهم لدى الصحف فى وطنه لمصلحته، كما بذلوا جهدهم للتحقق من أن ما قام به قد اعترف به فى مقالات كتبت عقب رحيله. لم يلق هو انتباهه للهجمات الخبيثة التى وجهت ضده فى بعض الصحف قبيل ذلك، وربما كان له الحق فى أن يتيه فرحا بالثناء الذى ناله فى سواها. ولم يكن هو حسن الرأى فى قيمة مديح وهجاء الصحفيين، ولكن كان التعبير عن رأى المصريين من الذاتيـــة والصدق بحيث لا يمكن أن يكون مخطئا. لقد أدخل على قلبه السرور الحقيقى، وزادته حرارة الشعور التى لم يتوقعها هو إلا قليلا.

وربما كان أحسن تسجيل للأيام الأخيرة التى قضاها أللنبى فى مصر هذه المقتطفات من الرسالة الرسمية التى بعث بها الوزير مستر هندرسون إلى وزارة الخارجية.

٢٨ نوفبر ١٩٢٥

من المناسب أن أسجل بعض الشواهد الرائعة لمدائح التقدير والحب التى قدمت للورد وليدى أللنبي خلال المدة التى سبقت مباشرة مغادرتهما لمصر

فمنذ اللحظة التى عرف فيها الجمهور أخبار استقالة فخامته الموشكة وهو وليدى آللنبي يتلقيان مالايحصى من الرسائل والبرقيات. ولا يمكن بأى حال إنكار روح الاخلاص والإصالة فيها. لامن الانجليز والجاليات الأجنبية فقط بل من كل ناحية من نواحى الرأى العام فى مصر لو استثنينا الزغلوليين.

وغمر فى نفس الوقت فخامتيهما طوفان من الدعوات لإقامة حفلات الوداع والتكريم لهما .

ولقد جعل قصر الوقت الباقى أمامهما مستحيلا أن يقبلا من تلك الدعوات إلا القليل . فاقتصرا بالنسبة للمصريين — على حفلات العشاء الرسمية فى القصر، ومع رئيس الوزراء ، وعلى حفلة تناول الغداء مع ثروت باشا ، وعلى حفلة الشاى بعد الظهر فى الكونتننتال وهى التى نظمها محمد باشا الشريعى ومبروك باشا فهمى وصالح لملوم باشا .

ولقد تبودلت الخطب الودية فى هذه الحفلات الثلاث الأخيرة . وقد صرح قضاة لهم حق الحكم على هذه الحفلة الثالثة — حفلة الشاى بعد الظهر — بأنها كانت إحدى الحوادث الرائعة من نوعها التى شوهدت فى مصر مما يمكن أن تعيه ذاكره المعاصرين . إذ اشترك فيها أكثر من ١٥٠٠ مدعو كلهم — إلا مائتين منهم — كانوا مصريين ، وكان من بين هؤلاء عدد محترم من أعيان الأقاليم الذين سألوه فى أحوال كثيرة قبول دعواتهم أيضاً . ولقد تكلم معهم أو سلم بيده عليهم جميعاً ، وكانت حرارة مشاعرهم من الوضوح بمكان . وان حقيقة مجيئهم من مسافات بعيدة فى أعداد كبيرة دون خشية من العواصف المحتملة لبرهان رائع على التغير الروحى الذى أصبح ظاهرة ملحوظة فى المرحلة الأخيرة من عمل فخامته

أما فى يوم مغادرة فخامته للقاهرة فقد اصطفت على جانبى الطريق جماهير غفيرة أظهرت صداقتها ، وكان المنظر فى داخل المحطة ذاتها منظراً رائعاً ، وكان الحشد هناك — الذى وجد من الضرورى تحديده بإصدار التذاكر — فريداً فى بابه مما تعيه ذاكرة الحاضرين . ولقد عجز كثيرون من المصريين — وكانوا

أصدقاء مقربين للورد وليدى أللنبي — عن إخفاء عواطفهم . بل إن القطار الخاص الذاهب إلى بورسعيد قد أوقف — طاعة لرغبة الجماهير — فى بنها والزقازيق حتى يتاح للأعيان إلقاء كلمات التوديع ، وأخيراً نظمت الجالية البريطانية فى بورسعيد مأدبة غداء لفخامتيهما قبيل نزولها إلى البحر.

ولقد أخذ لورد وليدى أللنبي نفسيهما — فى الأسبوع الأخير — بالرد على جميع الرسائل التى وجهت لهما ، غير حافلين بما ينطوى عليه ذلك من جهد . وكان الأثر الذى تركه هذا العمل الأخير الدال على العطف فى العقلية المصرية — وخاصة وهى كعادتها تستهويها مثل هذه التصرفات الدالة على الذوق — أثراً عميقا . ولقد أخبرنى أكثر من مصرى — فى إخلاص واضح — بأن رسالة توديع اللورد أللنبي له ستظل من أعظم كنوزه الغالية . ويمكن للانسان — على وجه العموم — أن يقول وهو واثق — إنه لايوجد غير قليل من ذوى الاعتبار فى مصر — من أية جنسية — من لم يترك فيهم رحيل فخامتيهما — لسبب ما أو لغيره — إحساساً بخسارة شخصية . »

إن المصريين شعب عطوف ، تعجبه الطبائع الكريمة ، وهم شعب مهذب ، يقدرون الأخلاق الطيبة ، ولو أنهم شعب غير عنيف إلا أنهم يعجبون بالقوة ويحترمونها . ومع أن يد أللنبي كانت شديدة عليهم فى بعض الأحيان ، فإنهم أدركوا العطف الذى تنطوى عليه سريرته . لقد كان سمحاً ، بسيطاً ، مستقيما — حتى فى وقت قسوته — مع المصريين الذين عاملهم ، وما داخلهم الشك مطلقاً فى قوة خلقه وغرضه ، ولقد أدهشهم أن رأوها متهمة فى أعين مواطنيه .

تذييل

هكذا كان سجل الأثر الذى تركه أللنبي فى ست سنوات هامة مضطربة من تاريخ مصر ، لقد فهم هذا الأثر إلى الآن فهماً حسناً وقدر تقديراً طيباً فى مصر أكثر مما لقيه من ذلك فى وطنه هو حيث هوجم عمله أو أنكر . ومن الممكن أن تتمكن القصة التى قدمت فى هذه الفصول من إظهاره أحسن من قبل . إن كل بريطانى فى مصر لمدين له بدين من الشكر ، فلقد حافظ — فى أشد الفترات صعوبة فى العلاقات بين البلدين — على مصالح بريطانيا الهامة دون أن يقع منه ما يؤلم . ولقد وفر لمصر الاستقلال من حكومة آتية .

ومن المؤسف أن تنتهى مدته فى مصر بجريمة مروعة ، وبعدم الوفاق الذى أدى إلى استقالته . ولولا ذلك لربما قد توج أللنبي عمله ذاك بمعاهدة على أساس التحفظات ، تلك المعاهدة التى لم تتحقق إلا بعد ذاك بعشر سنين ، إذ لم يوجد الشخص الذى يضع المصريون فى حسن عقيدته وأمانته ثقتهم العظمى كما وضعوها فيه . ولم يصفح أللنبي قط عن الشخصين الذين كانا المسئولين قبل كل شىء : زغلول وأوستن شمبرلن ، وليس ذلك لأسباب تتعلق منه بالطموح ، أو لاحتفال منه بشهرته ، بل لأنه اعتبر زغلول خائنا للثقة التى أظهرها بالشعب المصرى ، ولأن أوستن شمبرلن لم يكن بالنزيه معه . وهذان هما الخطأن الذان كان يعاقب عليهما — طول حياته — بأقسى مقته : خيانة الثقة التى يضعها فيمن يعمل معهم ، وفقدان الإخلاص فى القول وفى الكتابة .

ومن المحتمل أن يكون أللنبي — من بين الثلاثة العظام — الذين عملوا فى

مركز المعتمد بمصر : كرومر ، كتشنر ، أللنبي — أكثرهم قربا من قلوب المصريين — على الأقل المصرى المتعلم — فلقد كان كرومر — البار والمستقيم — محترما ، لكنه كان مكروها على التحقيق ، وكان كتشنر محبوبا معجبا به ، ولكن يشك فى أنه حظى بمثل المنزلة التى حظى بها أللنبي . أللنبي الذى أثرت أمانته ونزاهته فى الحديث والعمل فى جميع المصريين الذين اتصل بهم . كذلك قدرت شخصية لادى أللنبي وجاذبيتها تقديرا كبيرا .

لقد خلف أللنبي لورد لويد . وكانت سياسته البطش ، ولكن لا البطش ولا قلم السياسى الطيع أو لسانه المقنع بقادرة على تغيير الحقيقة التى أدركها أللنبي فى مصر ، وهى الروح الذى استيقظ فى شعب مصر



١٠٠